

آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي

(٩)



الرحلة إلى إفريقيا

للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي

١٣٢٥ - ١٣٩٣

تحقيق

خالد بن عثمان السبت

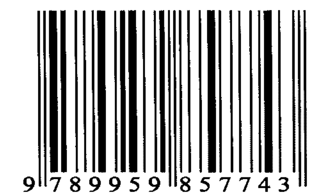
إشراف

بكر بن عبد الله أبو زيد

دار ابن حزم



ISBN 978–9959–857-74-3



الطبعة الخامسة

١٤٤١هـ - ٢٠١٩م

الطبعة الأولى لدار ابن حزم

دار ابن حزم

بيروت - لبنان -ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)

البريد الإلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني: www.daribnhazm.com

أحد مشاريع



هاتف: ‎+٩٦٦١١٤٩١٦٥٣٣

فاكس: ‎+٩٦٦١١٤٩١٦٣٧٨

info@ataat.com.sa

المقـــدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين، وبعد:

فقد سافر الشيخ العلامة المفسر الأصولي محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار الشنقيطي الجَكَني ـ رحمه الله ـ المولود سنة (١٣٢٥هـ) من بلاده لسبع مضين من جمادى الآخرة، من سنة (١٣٦٧هـ) قاصدًا بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، ثم زيارة مسجد رسول الله ﷺ، وبعدها يرجع إلى بلاده، ولكن الله شاء للشيخ رحمه الله أن يستقر في المدينة النبوية، ويقيم دروسًا حافلة في المسجد النبوي وغيره، فانتفع منه القاصي والداني، وبعد تمام ثماني عشرة سنة كاملة[١] توجه الشيخ رحمه الله على رأس وفد يتألف من أربعة أفراد (ثلاثة من الجامعة الإسلامية وواحد من رابطة العالم الإسلامي) موفدين من الجامعة والرابطة.

أعضاء الوفد:

١ ـ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله رئيسًا.

---

(١) كما صرح بذلك الشيخ عطية رحمه الله في كلمة للإذاعة الموريتانية، وهي ضمن محتويات الشريط السابع من أشرطة هذه الرحلة. كما جاء في تأريخ بعض اللقاءات بأنها كانت في اليوم الثامن من شهر جمادى الآخرة، وبعضها قبل ذلك. وهذا يعني أن تلك الرحلة كانت سنة (١٣٨٥هـ).

٢ ـ الشيخ عطيه محمد سالم عضوًا.

٣ ـ الشيخ محمد أمان الإثيوبي عضوًا.

(وهؤلاء الثلاثة من الجامعة الإسلامية).

٤ ـ سيدي الأمين المامي الجكني عضوًا.

من الرابطة.

الدول التي زارها الوفد:

توجه الوفد إلى تسع دول إفريقية، وهي: السودان، نيجيريا، الداهومي[١]، النيجر، مالي، السنغال، موريتانيا، فولتا العليا، تشاد.

أهداف الوفد:

يمكن حصر الأهداف التي سافر الوفد من أجلها في ثلاثة أمور[٢]، وهي:

١ ـ تقوية أواصر الرابطة الإيمانية بين المسلمين.

٢ ـ بث الوعي بين أبناء المسلمين في تلك البلاد.

٣ ـ التعرف على أحوال المسلمين.

---

(١) هكذا سماها الشيخ عطية رحمه الله.

(٢) وذلك بناءً على ما صرح به الشيخ عطية رحمه الله في عدد من المناسبات في تلك الرحلة كما هو مسجل في الأشرطة.

الحفاوة التي قوبل بها الوفد:

لعل من أبرز ما يُلفت انتباه المستمع لأشرطة هذه الرحلة هو تلك البهجة الغامرة التي عبر عنها العلماء والأدباء والشعراء بكلماتهم وقصائدهم، إضافة إلى ما يصفه الشيخ عطية رحمه الله من تجمهر الناس وحضورهم محاضرات الشيخ الأمين رحمه الله، وقد التقى أعضاء الوفد بالعلماء، والقضاة، ورئيس الدولة، وعدد من الوزراء، كما شُكِّل وفد في موريتانيا لمرافقة الوفد في تنقلاته في البلاد شرقها وشمالها.

القدر الذي وصلنا عبر التسجيل الصوتي مما أُلقي في هذه الرحلة:

إن مجموع ما وصل إلينا من الأشرطة المسجلة في هذه الرحلة عشرة أشرطة فحسب، وهو عدد قليل إذا تذكرنا أن الوفد قد زار تسع دول، إضافة إلى إحدى عشرة عاصمة من عواصم المديريات في شمال وشرق موريتانيا(١).

توصيف محتويات الأشرطة:

يمكن أن أُلخص مضمون هذه الأشرطة في الأمور الآتية:

١ ـ كلمات ومحاضرات للشيخ الأمين رحمه الله.

---

(١) قام الوفد برحلتين في موريتانيا ابتداء من العاصمة وانتهاء إليها، الأولى: إلى شرق البلاد، وقد شملت: العيون، والنعمة، والمجرية، وكيفه، وقرو، وكيهيدي، وألاق، وأبو تلميت. والثانية إلى شمال البلاد وقد شملت: نواذيب، وزويرات، وأطار.

٢ ـ أجوبة عن سؤالات وُجهت للشيخ رحمه الله.

٣ ـ محاضرات (قليلة) لبعض أعضاء الوفد.

٤ ـ كلمات ترحيبية وقصائد قيلت في بعض المناسبات التي قوبل فيها الوفد.

٥ ـ ما يصاحب ذلك غالبًا من كلام للشيخ عطية رحمه الله يصف المقام والمناسبة، أو يُعرِّف بالوفد، أو يبين مهمته، أو غير ذلك مما يتصل بالجانب الإعلامي.

وأما على سبيل التفصيل فعلى النحو الآتي:

الشريط الأول: محاضرة للشيخ رحمه الله فسر فيها الآيات (٢١ ـ ٢٤) من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ ـ إلى قوله: ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

الشريط الثاني: كلمات ترحيبية، إضافة إلى سؤالات وُجهت للشيخ رحمه الله، ثم أجاب عنها.

الشريط الثالث: كلمة افتتاحية، وأسئلة وُجهت للشيخ رحمه الله وأجاب عنها، إضافة إلى بعض المداخلات والكلام للشيخ عطية رحمه الله.

الشريط الرابع: كلمة أو محاضرة للشيخ الأمين رحمه الله اشتملت على ثلاثة محاور:

الأول: بيان المعتقد الصحيح في آيات الصفات.

الثاني: بيان الموقف الصحيح من الحضارة الغربية.

الثالث: بيان أن الإسلام دين القوة والتقدم في جميع الميادين.

بعد ذلك وُجهت بعض الأسئلة للشيخ رحمه الله، وأجاب عنها.

الشريط الخامس: محاضرة لأحد أعضاء الوفد.

الشريط السادس: محاضرة للشيخ الأمين رحمه الله في موضوع الرابطة الإيمانية، وهي مترجمة إلى اللغة الهوساوية.

الشريط السابع: ويتضمن:

١ ـ بعض كلمة أو محاضرة للشيخ رحمه الله يبين فيها الإسلام دين القوة والتقدم في جميع الميادين.

٢ ـ كلمة موجهة للنساء يبين فيها تكريم الإسلام للمرأة، إضافة إلى كلمة للشيخ عطية رحمه الله.

الشريط الثامن: محاضرة للشيخ الأمين رحمه الله تتضمن ستة محاور:

١ ـ الاعتقاد الصحيح في نصوص الصفات.

٢ ـ مفهوم «لا إله إلا الله».

٣ ـ بيان أن الإسلام دين القوة والتقدم في جميع الميادين.

٤ ـ بيان الموقف الصحيح من الحضارة الغربية.

٥ ـ بيان أن الإسلام ينظم جميع شؤون الحياة.

٦ ـ الكلام على الرابطة الإيمانية.

الشريط التاسع: مكرر مع الشريط الأول.

الشريط العاشر: كلمة أو محاضرة للشيخ الأمين رحمه الله في موضوع الرابطة الإيمانية ألقاها في مالي (مترجمة). إضافة إلى بعض الكلمات الأُخرى لغيره.

عَمَلُنا في هذه المادة:

١ ـ عهدت إلى بعض طلبة العلم فقاموا مشكورين بتفريغ محتويات الأشرطة.

٢ ـ بعد مراجعة ما تمت كتابته، ومقابلة ذلك بالأشرطة المسجلة اقتصرت على المحاضرات والكلمات والفتاوى التي صدرت من الشيخ الأمين رحمه الله دون غيرها؛ ذلك أن الهدف من إخراج هذه الرحلة إنما هو إدخالها ضمن الفهرس الشامل لجميع آثار الشيخ العلمية.

٣ ـ خرَّجتُ الأحاديث الواردة في هذه المحتويات وعزوت الأبيات والشواهد الشعرية، ولم أتتبع جميع المسائل العلمية من جهة التوثيق من المصادر، كما فعلت في دروس الشيخ رحمه الله في التفسير الذي ألقاه في المسجد النبوي، وذلك لأن عامة المسائل المذكورة في هذه الرحلة موجودةٌ ضمن التفسير المشار إليه وقد وثقتها هناك، ويمكن الرجوع إليها عن طريق الفهرس المشار إليه.

٤ ـ جعلت كل محاضرة على حدة، وأشرت في الحاشية إلى

الشريط الذي وُجدت فيه، أما السؤالات فقد جمعتها مع أجوبتها، وجعلتها متسلسلة تالية المحاضرات، كما أشرت في الحاشية إلى مواضع وجودها من الأشرطة، وجعلت لها ترقيمًا متسلسلاً، وصدرت الإجابة بـ(الجواب). ولم ألتزم كتابة نص السؤال حرفيًا، بل قد أختصر فيه بعض الشيء إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

٥ ـ أَثْبَتُّ كلام الشيخ رحمه الله بنصه[١]، وإذا وُجد مسح أو انقطاع في التسجيل أو جملة أو كلمة غير واضحة فإني أجعل مكان ذلك نقطًا مع الإشارة في الحاشية، ولربما أثبتُّ زيادة يتم بها المعنى، وأجعلها بين معقوفين مع الإشارة لذلك في الحاشية، كما حذفت الكلمات الزائدة التي تجري على لسان الشيخ رحمه الله في ثنايا الكلام، كقوله بين حين وآخر: «مثلاً»، وكذا بعض العبارات المكررة.

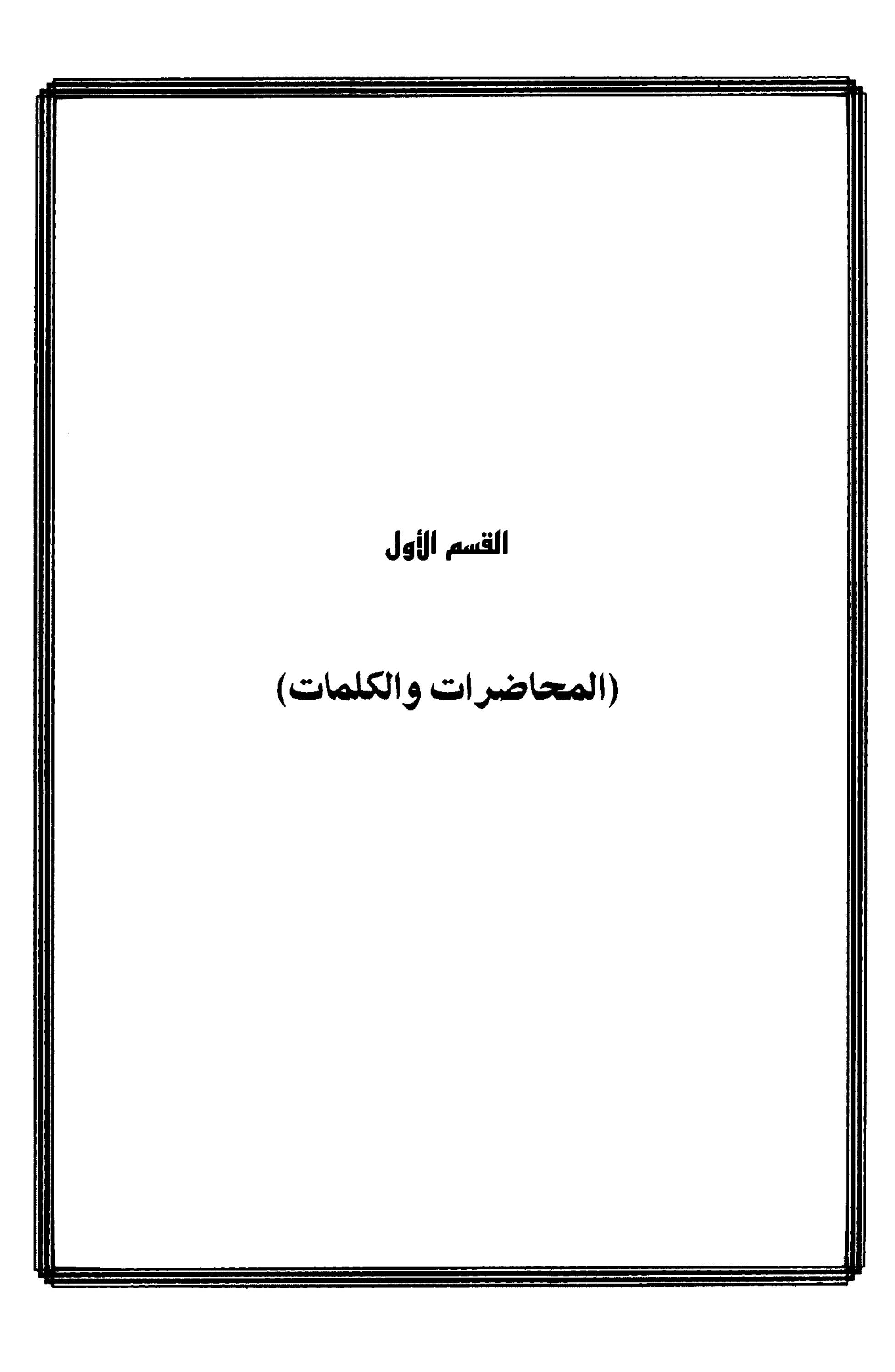
هذا وأسأل الله أن يرحم الشيخ ويعلي درجته في الجنة، وأن يجزي خير الجزاء كل من أعان على إخراج هذا العمل إنه سميع مجيب، وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم الفراغ من مراجعته ليلة الأول من محرم من عام (١٤٢٤هـ).

وكتبه: خالد بن عثمان السبت

---

(١) حتى الآيات التي تلاها الشيخ على قراءة نافع.



القسم الأول

(المحاضرات والكلمات)

[١]

تفسير الآيات (٢١ ـ ٢٤) من سورة البقرة

/ [1] أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يقول الله جلَّ وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة/ ٢١ ـ ٢٤].

تلونا عليكم هذه الآية الكريمة من أول سورة البقرة، وإن كان الكلام عليها لا يسعه يوم ولا بعض يوم، إلاَّ أنا نريد أن نذكر حولها نماذج يستبين بها الناس بعضًا من أضواء القرآن.

أولاً: ننبه إخواننا على فضل القرآن العظيم؛ لأن فيه جميع خير الدنيا والآخرة، فعلينا جميعًا أن نتدارسه ونتعلمه، حتى نعتقد عقائده، ونحل حلاله، ونحرِّم حرامه، ونتأدب بآدابه، وننزجر بزواجره، ونتربى بما فيه من مكارم الأخلاق، وأن نتعظ بما فيه من العبر، والمواعظ، والأمثال، وقصص الأمم الماضية.

الله ـ جل وعلا ـ في هذه السورة الكريمة ـ التي تلونا منها هذه الآيات ـ التي هي سنام القرآن، السورة العظيمة التي بين الله ـ جل وعلا ـ فيها ومهَّد فيها جميع دين الإسلام، ذكر فيها أخبار الأمم الماضين، وأخبار الجنة والنار، وأقام فيها براهين العقائد، ومناظرة

---

(١) من الشريط الأول.

الخصوم، وذكر فيها دعائم الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج، وذكر فيها العمرة، وأكل الحلال، والأحوال الشخصية من نكاح وطلاق وخُلْع، والمعاملات كالديون والربويات والوثائق والشهادات والرهون، وما جرى مجرى ذلك.

نلفت أنظار إخواننا إلى الترتيب الغريب العجيب الذي فعله الله في هذه السورة:

أولاً ابتدأ الله هذه السورة الكريمة بحروف مقطعة ﴿الٓمٓ ۝١﴾ وهذه الحروف المقطعة لاشك أنها تُلفت نظر السامع إلى ما يُتكلم به بعدها وتجعله متعطشًا عليه.

والآن ليس مرادنا الكلام على الحروف المقطعة لأنه كلام يستغرق الوقت كله، ولكن لما ذكر الله هذه الحروف المقطعة وابتدأ بها هذه السورة العظيمة قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فبيّن أن هذا الكتاب المشتمل على خير الدنيا والآخرة الذي هو النور المبين، والحبل المتين، الذي أوضح الله به العقائد، والحلال والحرام، وجميع خير الدنيا والآخرة لا تتطرقه الرِّيب ولا الشكوك؛ لأن معجزته أوضح من أن يتطرق إليه شك.

ومعروف أن للسائل أن يقول: كيف يقول: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بـ«لا» التي لنفي الجنس، مع أن قومًا ارتابوا فيه وحصل منهم ريب، كقوله في قوم: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾ [التوبة/ ٤٥]؟

ونحن نقول: الجواب: أن القرآن بالغ من كمال المعجزة وإيضاح

المعجزة مالا تتطرقه الرِّيب ولا الشكوك، وإنما ارتاب فيه المرتابون لعمى بصائرهم، كما نص الله على ذلك في سورة الرعد: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد/ ١٩].

فصرح بأن من لم يعلم أنه الحق إنما منعه من ذلك عماه، ومعلوم أن عدم رؤية الأعمى للشمس لا تقدح في كون الشمس لا ريب فيها.

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة   فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر[1]

ثم بعد أن بين أن هذا القرآن لا ريب فيه جعل جميع الأمة التي أنزل إليها هذا المحكم المنزَّل ثلاث طوائف.

جميع الأمة التي أنزل إليها هذا المحكم المنزَّل الذي هو مفتاح الجنة ومفتاح النار، لا يدخل أحد الجنة إلا عن طريق العمل بهذا القرآن، ولا يدخل أحد النار إلا عن طريق الإعراض عنه، قال جل وعلا في المعرضين عنه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ أي كائنًا ما كان ﴿ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [هود/ ١٧].

وقال جل وعلا فيمن أُورثوه وعملوا به: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ

---

(١) البيت في نفح الطيب (١/ ٦٨)، وأورده الشيخ رحمه الله في دفع إيهام الاضطراب ص٧، وهو في العذب النمير عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

﴿ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ [فاطر/ ٢٩ ـ ٣٢]، فبين أنّ إيراثه علامة الاصطفاء، ثم قال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر/ ٣٢]، ثم بيّن أنّ هذا القرآن هو أعظم نعمة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾.

ثم جاء بوعده الصادق: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾ [فاطر/ ٣٣]، الواو في قوله: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ شاملة للأصناف الثلاثة وعلى رأسهم الظالم لنفسه، وكان بعض العلماء يقول: «حُقَّ لهذه الواو أن تُكتب بماء العينين»[1]؛ لأن واو ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ فيها وعد صادق بالجنة للجميع وعلى رأسهم الظالم لنفسه.

وكان بعض العلماء يقول: «ما الحكمة في تقديم الظالم لنفسه قبل السابق والمقتصد، والله حكيم لا يقدِّم إلا لنكتة تستوجب التقديم»؟![2].

كان بعض العلماء يقول: هذا مقام إظهار الكرم، فقدَّم الظالم لئلا يقنط، وأخّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط.

وكان بعض العلماء يقول: أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم؛ لأن الله يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص/ ٢٤].

---

(١) انظر: الأضواء (٦/ ١٦٥)، العذب النمير (تفسير الآية ٤٧ من سورة البقرة).

(٢) انظر: القرطبي (١٤/ ٣٤٩)، الأضواء (٦/ ١٦٥)، العذب النمير (تفسير الآية ٤٧ من سورة البقرة).

فبدأ بهم لأكثريتهم.

الشاهد أن الله بين في آيات البقرة التي تلوناها أن الأمّة بالنسبة إلى هذا الكتاب المنزل الذي هو أعظم نعمة أنزلها الله من السماء إلى الأرض، وعلمنا أن نحمده على إنزالها في غير ما آية، كقوله في أول سورة الكهف: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف/ ١]، أي: لم يجعل فيه اعوجاجًا كائنًا ماكان، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني، فألفاظه في غاية الإعجاز والسلامة من العيوب والوصمات، ومعانيه كلها في غاية الكمال، أخباره صدق، وأحكامه عدل ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ ﴾ [الأنعام/ ١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلاً في الأحكام = بين أن الأمة بالنسبة إليه ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى ـ نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منها ـ: طائفةٌ آمنت به ظاهرًا وباطنًا، وأبصرت هذا النور، فاهتدت بهذا النور، واتصلت على ضوئه بخالق الكون، فرأت الحق حقًّا والباطل باطلاً، والنافع نافعًا والضار ضارًّا، والحسن حسنًا، والقبيح قبيحًا. قال في هذه الطائفة: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [البقرة/ ٢ ـ ٤] ثم أثنى عليهم بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة/ ٥].

ثم بين أن هناك طائفة أخرى من الطوائف الثلاث بالنسبة إلى هذا القرآن الذي لا ريب فيه أنها طائفة ـ والعياذ بالله ـ كفرت به ظاهرًا

وباطنًا، قال فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة/ ٦ ـ ٧] وهذه الطائفة ـ والعياذ بالله ـ إنما عميت عن أنوار القرآن لأنها خفافيش البصائر، والخفاش لا يرى الشمس.

خفافيش أعماها النهار بضوئه ... ووافقها قِطْع من الليل مظلم[1]

مثل النهار يزيد أبصار الورى ... نـورًا ويعمـي أعيـن الخفـاش[2]

كما بينا كما في قوله في سورة الرعد: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٩﴾ [الرعد/ ١٩].

والطائفة الثالثة: وهي أخس الطوائف ـ هي طائفة آمنت به ظاهرًا، وكفرت به باطنًا فكانت من المذبذبين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهي طائفة المنافقين، وهي أخس الطوائف، ذكرها الله في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يخادعون إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يُكَذِّبون﴾ [البقرة/ ٨ ـ ١٠].

---

(١) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه (١/ ١٥٧)، تحقيق حسين نصار، ولفظه هناك:

خفـافيـش أعشـاهـا نهـار بضـوئـه ... ولاحمها قطع من الليل غيهب

(٢) البيت في المغني لابن قدامة (١٣/ ٣٢٣)، حياة الحيوان للدميري (١/ ٢٩٦)، صبح الأعشى (٢/ ٨٨)، الأضواء (٢/ ٢٧٤).

وأطال في كلامه في هذه الطائفة لأنها أخس الطوائف، فضرب لها الأمثال بمثل النار ومثل الماء ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة/ ١٧] ومثل الماء في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة/ ١٩].

ولا يسعنا المقام في أن نتكلم على المثلين لأنه يستغرق وقتًا طويلاً.

والشاهد أن الله لمّا نوّه بهذا القرآن العظيم، وبَيَّنَ أنه الكتاب الأعظم الذي لا ريب فيه، وبيّن أن الناس بالنسبة إليه ثلاث طوائف: طائفة طيبة، وطائفتان خبيثتان، ليس المقصود من القرآن في تقسيم هذه الطوائف مجرد تاريخ ولا إخبار، بل مجرد وعظ وإرشاد ليعلم خلقه ويبيِّن لهم أنهم يجب عليهم أن يُسارعوا إلى أن يكونوا من الطائفة الطيبة، ويتباعدوا كل التباعد من الطائفتين، المقصود تنبيه المسلمين على أن يكونوا من المتقين الذين يؤمنون بالغيب ومما رزقناهم ينفقون، وأن يتباعدوا كل التباعد أن يكونوا من طائفة الكافرين أو طائفة المنافقين.

لاشك أن المسلم إذا علم هذا التقسيم من خالق الكون ـ جل وعلا ـ أنه يتشوَّف بتعطش إلى الطريق التي يجتنب بها الكينونة مع الطائفتين الخبيثتين، والصيرورة مع الطائفة الطيبة، لاشك في هذا؛ لأجل هذا أتبع الله هذا التقسيم بإيضاح كلمتين عليهما مدار خير الدنيا والآخرة، وجميع الهدى، والصلة الكاملة بمن رفع هذه السماء ودحا هذه الأرض، وفتح هذه العيون في أوجهكم، ففرق أصابعكم وشدَّ رؤوسها بالأظفار، وأنتم في بطون أمهاتكم من غير أن يحتاج إلى أن

يشقها ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر/ ٦]. هاتان الكلمتان هما: (لا إله إلا الله محمد رسول الله). فبدأ بالكلمة الأولى التي هي (لا إله إلا الله) وبينها لأنها مركبة من نفي وإثبات، (لا إله) نفي، (إلاّ الله) إثبات. ومعنى نفيها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات، ومعنى إثباتها: إفراد خالق هذا الكون ـ جل وعلا ـ بالعبادة.

وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته[1]:

تُباري عتاقًا ناجيات وأتبعت وظيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ

أي: مذلل لدوس الأقدام والأرجل.

أما العبادة في اصطلاح الشرع فهي: التقرب إلى خالق هذا الكون بما أمر أن يُتقرب له به على الوجه الشرعي على لسان محمد ﷺ مع الخضوع والذل والمحبة، فلا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، ولا المحبة دون الذل والخضوع، لأن المحبة إن لم يكن معها خوف كان صاحبها في إذلال وجراءة، فقد يقع في المقام الإلهي بما لا ينبغي إدلالاً بالحب وأمنًا من عدم الخوف، والخوف إذا كان منفردًا عن المحبة كان صاحبه مُبْغِضًا. وهذا كله لا يليق، لابد من ذل وخضوع من جهة، ومن محبةٍ من جهة أخرى.

هذه الكلمة التي بيّنا معناها جاء الله بإثباتها منفردة في قوله:

(١) شرح القصائد المشهورات (١/ ٦٠).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة/ ٢١].

وجاء في نفيها في حدة في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة/ ٢٢] وكان أول أمر في المصحف الكريم ـ إذا نظرت المصحف الكريم أول أمر فيه على الترتيب الذي هو عليه ـ قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ ﴾ [البقرة/ ٢١] في هذه الآية التي تلونا من أول سورة البقرة. وأول نهي فيه قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة/ ٢٢]. فأول [أمر][1] في المصحف يتضمن حظ الإثبات من: (لا إله إلا الله). وأول نهي منه يتضمن حظ النفي من: (لا إله إلا الله).

ثم إن الله لما بين هذه الكلمة الأولى وأوضحها جاء ببراهينها: بيَّن تفسير جزأيها، ثم ضمنها براهين البعث، وسنتكلم على هذا ونوضحه الآن.

ثم بعد ذلك أقام برهان (محمد رسول الله) بعد أن بين (لا إله إلا الله) وبراهينها العقلية المضمنة براهين البعث أتبع ذلك بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة/ ٢٣] وهذا برهان الإعجاز؛ لأن إعجاز جميع الخلائق عن أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن برهان قاطع على أنه تنزيل رب العالمين، إذ لو كان من كلام العرب لقدر البشر على محاكاته؛ ولذا لما قال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ قال: ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ [البقرة/ ٢٤] لنفي المستقبل علّق ونفى الشرط المعلق عليه ليدل على أن المشروط لا يأتي أبدًا، ولذا قال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ لا يمكن أن تفعلوا، وهذا التعليق والنفي أسلوب بليغ من كلام

---

(١) الأصل: نهي، وهو سبق لسان.

العرب، ونظيره من كلام العرب قول الخنساء الشاعرة السُّلَمية:[1]

هريقي من دموعك واستفيقي وصبرًا إن أطَقْتِ ولن تُطيقي

ولذا لما قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة/ ٢٤] يعني: فاعلموا أن حجة الله وبرهانه قام عليكم بصدق هذا النبي الكريم، وأن هذا المحكم المنزل كلام رب العالمين ـ جل وعلا ـ وقد تحداهم هنا بسورة منه قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة/ ٢٣] ثم تحدَّاهم في سورة يونس بسورة أيضًا قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾ [يونس/ ٣٨] ثم تحدَّاهم في سورة هود بعشر سور قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣﴾ [هود/ ١٣]. ثم قال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ [هود/ ١٤] أي: فتيقنوا علمًا يقينًا ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤﴾ [هود/ ١٤] ثم تحدَّاهم في سورة الطور به كله قال: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾ [الطور/ ٣٤]. ثم بين في سورة بني إسرائيل ـ سورة الإسراء ـ أن جميع الخلائق عاجزون عن الإتيان بمثله قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء/ ٨٨] هذا برهان إعجاز ذكرنا منه نموذجًا خفيفًا ليستدل به السامع على غيره.

---

(١) ديوان الخنساء (ص١٠٣).

ثم أرْجعُ إلى بيان براهين (لا إله إلا الله) فالمشركون يقولون: كيف تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص/ ٥] ما البرهان على وحدانية هذا الإله الذي رفع هذا الكون؟ هذا البرهان كرره الله في هذه السورة الكريمة تكريرًا كثيرًا، منه ما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة/ ١٦٣]. ثم أتبع هذا بالأدلة العقلية في هذه السورة حيث قال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة/ ١٦٤]. وهنا قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة/ ٢١]، يعني: من أعظم براهين عبادة الله وحده أنه خلقنا واخترعنا من العدم إلى الوجود، وخلقه لنا من غرائب وعجائب صنعه كما نبين منه نموذجًا قليلاً هنا: **أولاً**: الله في القرآن يجعل الفرق والعلامة الفارقة بين من يستحق أن يُعبد ومن لا يستحق أن يُعبد هي الإبراز والاختراع والإبداء من العدم إلى الوجود، فمن يخترعك ويبرزك من العدم إلى الوجود عليك أن تعبده، ومن لا يخلقك فهو محتاج إلى خالق ـ مثلك ـ فأنت وهو ملزمان بأن تعبدا من خلقكما، ولذا قال هنا: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة/ ٢١] وقال جل وعلا: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل/ ١٧] لا والله ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ۝١٦﴾ [الرعد/ ١٦] وخالق كل شيء هو معبود كل شيء، وهذه الحالة التي خلقنا عليها خالق الكون هي من غرائب وعجائب صنع مَنْ خلقنا، وقد أمرنا أمرًا

واجبًا على كل إنسان منا أن ينظر فيها ويتأمل حيث قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ [الطارق/ ٥] هذا أمر واجب من خالق الكون؛ لأن المقرر في علوم المعاني وعلوم الأصول: أن صيغ الأمر الأربعة تدل على الوجوب حتمًا إلا إذا صرف عنه صارف، وهذا هو الحق. وصيغ الأمر الدالة على الوجوب في اللغة العربية معلوم أنها أربع صيغ:

أولها: فعل الأمر، نحو: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

الثاني: الفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، كقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾ [عبس/ ٢٤].

الثالث: اسم فعل الأمر، نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة/ ١٠٥].

الرابع: المصدر النائب عن فعله، نحو: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد/ ٤] (فضرب الرقاب) يعني: اضربوا رقابهم.

هذه صيغ الأمر. وصيغة الأمر هنا في ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ هي تقتضي الوجوب الحتم، ﴿مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾؟ والإنسان له رحلة يجب على المسكين أن يتأملها وينظر فيها ليعلم قدره ويعلم عظمة من خلقه، أمر الله بالنظر فيها في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ [الطارق/ ٥] وبين للخلق ماخلقهم منه قال: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج/ ٣٩] ترى اللي خلقناكم منه هو اللي تعرفوه.

وقد أوضح الله ـ تعالى ـ رحلة الإنسان إيضاحًا يُعرِّف الإنسان بنفسه ويُعرِّفه بربه، ذلك الإيضاح في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ وذلك أن هذا الإنسان الذي يطغى ويبغي ويغزو الفضاء ويحاول يتمرد

على نظام السماء، ويعصي من خلق هذا الكون، ابتداء رحلته تراب وماء، أخذ الله ترابًا فبَلَّهُ بماءٍ فصار اسمه طينًا، ثم إن الله نقل هذا الطين من طور إلى طور خُمِّر حتى صار حمأً مسنونًا، ويُبِّس حتى صار صلصالاً كالفخار، ثم خلق الله بقدرته منه رجلاً لحمًا ودمًا هو الأب آدم عليه صلوات الله وسلامه، فلما خلق هذا الإنسان من هذا التراب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾ [آل عمران/ ٥٩]. لما خلق هذا الإنسان من هذا التراب خلق امرأته من ضلعه، وقد نص الله تعالى على أنه خلق حواء من آدم في ثلاث سور من كتابه: في أول سورة النساء في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء/ ١] النفس: آدم، وزوجها التي خُلقت منه: حواء. وقال في سور الأعراف: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف/ ١٨٩]. وقال في سورة الزمر: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر/ ٦].

ثم بعد أن صار هناك زوجان رجل وامرأة كان الطور الثاني للآدميين هي نطفة مَنِيٍّ تقع في رحم المرأة ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان/ ٢] أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة، ثم تمكث هذه النطفة في الرحم ماشاء الله، ثم ينقلها الله ـ جل وعلا ـ علقة، أي: دمًا جامدًا، ثم ينقل الله هذا الدم إلى مضغة ـ قطعة لحم على نحو ما يقطعه آكل اللحم ليمضغه ـ ثم إن الله يحول هذا اللحم إلى هيكل عظام يركب فيه هذه العظام بعضها ببعض، هذه السُلاميات، وهذاالبنان، وهذه المفاصل يُركِّب بعضها ببعض، هذا التركيب الدقيق والصنع الهائل العجيب في كل عضو منا، وهذا الذي ركبه ليس بأخرق كما قال: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ

﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان/ ٢٨] الأسر: يعني الشد كما تقول للمرأة: «أَسَرَتْ اخْطيرها»[1] ـ يقولون بالحسانية ـ ومعناه: يعني ضم الشيء إلى الشيء وشدّه به شدًا محكمًا ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ لو كان الذي شد اليد بالساعد والساعد بالمرفق والبنانة بالبنانة لو كان أخرقًا إذا تحرك الإنسان سقطت يده، أو سقط مرفقه، أو طاح رجله، بل الذي يشدها يشده شدًا محكمًا، ثم إن الله ـ جل وعلا ـ يكسو هذا الجسم هذا اللحم ويجعل فيه هذا الدم، ويُجري مجاري البول والغائط يفتحها لتنزل عنها الفضلات، ويفتح مجاري العروق والشرايين ليدير الدم، ويضع كل عضو في محله كالكبد والطحال والكليتين، ويُوَكِّل كلاً بوظيفته في تدبير الجسم، ويفتح هاتين العينين، ويجعل فيهما هذا النور، ويصبغ بعض العينين بصبغ أسود، وبعضهما بصبغ أبيض، ويفتح هذا الفم ويجعل فيه اللسان، ويودعه هذه الفصاحة، ويُنبع عين الريق العذبة ليأكل بها الإنسان، إذ لو يبس ريقه لما ابتلع الزبد الذائب، ثم إنه إذا لم تكن له حاجة في الريق لم يجم لئلا يتعبه التفل [. . .][2] يعني جُعلت له الأذنان ليسمع، وجعل على هذا التركيب الغريب الهائل [وجعل على هذه الهيئة بطنه، وشهدت][3] العينان حول البطن، والظهر الذي ليس عنده عينان جُعل عظمًا لو ضربه شيء لا يكاد يضر، وجعل في الإنسان من الغرائب والعجائب شيء يبهر العقول، حتى إن

---

(١) أي: شدَّت الهودج أو ما يشبهه مما يوضع على البعير تركبه المرأة.

(٢) في هذا الموضع جملة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

(٣) في الأصل جملة غير واضحة، وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

ما يحتاج إلى قصه دائمًا كشعره وأظافره نُزعت منه روح الحياة لئلا يُتْعِبَه عند القص. هذا من غرائب وعجائب خالق الكون ـ جل وعلا ـ خلقنا على هذا النحو الغريب، وصَوَّر بني آدم على هذه الصورة، جعل الأنف هنا، والعينين هنا، ولم يشتبه اثنان، طبع كل إنسان على صورة مخالفة لصورة الآخر، وهذه الصورة التي وضع عليها كل واحد هي سابقة في العلم الأزلي، ووضع تنفيذًا على نحو ما سبق به العلم، ولو خُلق ملايين الملايين زائدًا على من خُلق لم يضق العلم، فكل واحد توجد له صورة مخالفة لصورة الآخر، حتى آثارهم في الأرض وأصوات نغماتهم وبصماتهم في الأوراق كلها مختلفة، هذه صنائع رب العالمين، وهذه أسرار قليلة من أسرار معنى ﴿ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة/ ٢١] يعني: فمن فعل فيكم هذا من الأفعال والغرائب والعجائب في كل عضو وكل مطرح إبره هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه. ولا يخفى عليكم أن ربنا فعل فينا هذا من الغرائب والعجائب ونحن في بطون أمهاتنا لم يحتج إلى أن يشق أم الواحد منا، ولا أن يبنجها، ولا ينومها في صحية، بل فعل كل هذه العمليات والمرأة لاهية تفرح وتمرح لا تدري عن شيء مما يُفعل في داخلها من غرائب صنع الله وعجائبه، ثم ييسر طريق الخروج. ونحن دائمًا نذكر هذا لأن الله يلفتنا إليه حيث يقول: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر/ ٦] وهو محل الشاهد، فهذا الذي يفعل هذا الخلق والإيجاد هذا هو الذي يستحق أن يُعبد.

ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة/ ٢١] أي: وخلق الذين من قبلكم. يعني: اعبدوه لأجل أن تتقوه، أي: أن تجعلوا بينكم وبين سخطه وعذابه وقاية، والوقاية: هي امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

ثم زاد في البراهين العقلية: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا ﴾ يعني: هذا من غرائب صنعه وعجائب أمره التي تستدعي أن يُعبد وحده ويعلم أنه الرب وحده ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا ﴾ [البقرة/ ٢٢] وهذا الذي فرش هذه الأرض ليس بأخرق ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات/ ٤٨] جعلها ليست شديدة الاستعداد في أخذ الحر زمن الحر، ولا لأخذ البرودة زمن البرودة، فلو جعل الأرض كلها من حديد أو من نحاس أو من رصاص أو قصدير هلك كل من عليها، جعلها رخوة لينة يعيش الخلق عليها، قابلة للزراعات، وأنواع الغراسات، وإجراء العيون والأنهار، وبناء البيوت، ومثبتة موطدة بالجبال، تدفن فيها الأموات كما قال: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [المرسلات/ ٢٥ ـ ٢٦] وقوله: ﴿ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ ﴾ مصدر كفته إذا ضمّه، أي: تكفتكم وتضمكم أحياء على ظهرها وأمواتًا في القبور في بطنها. وهذه الأرض التي فرشها هذا الفرش بث فيها ـ جل وعلا ـ من هذه الجبال، وعلى ألوان مختلفة ﴿ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر/ ٢٧ ـ ٢٨] بث فيها من أنواع الحيوانات، والأشجار والثمار وأنواع الحبوب والزروع، والمعادن، والجبال مع اختلاف الألوان والأشكال والمنافع والأقدار والطعوم ﴿ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ

﴿وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد/ ٤].

ثم قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة/ ٢٢] أي وجعل هذه السماء بناءً سقفًا مرفوعًا لا يتفطر ولا يتشقق، ولا يحتاج إلى ترميم ولا إصلاح مع أنه تمر عليه آلاف السنين ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك/ ٣ ـ ٤] أي: فاترًا ذليلاً من عظم ما رأى؛ ولذا قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾.

ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة/ ٢٢] إنزال السماء هذا الماء الإنسان ـ أيضًا ـ يجب عليه النظر فيه لأن الله يقول: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾ [عبس/ ٢٤] ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ واجبة كما ذكرنا في الأولى ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾ يجب على كل إنسان حتمًا أن ينظر إلى طعامه. ومعنى هذا وكأن ربه يقول: أيها الإنسان المسكين الذي تتنطع وتتمرد على نظام السماء انظر الخبز الذي تأكل منه ـ ولو لم تجده لمت ـ من هو الذي خلق الماء الذي شرب به وروي حتى نبت، أيمكن أن يخلقه غير الله؟ لا، هب أن الماء خُلق من يقدر على إنزاله على هذا الطريق والأسلوب الغريب العجيب ـ رشاش ـ حتى تروى الأرض من غير أن يضر بها الماء؟ فلو كان مُنزلهُ أخرقًا لجعل المطر كله قطعة واحدة، فترك البلاد أثرًا بعد عين!! ينزله بغاية اللّطافة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور/ ٤٣].

هب أن الله ـ جل وعلا ـ خلق الماء وأبدعه بقدرته وإرادته ثم أنزله على هذا الأسلوب الغريب العجيب الهائل ورويت الأرض وشربت، من

هو الذي يقدر على أن يشق الأرض ويخرج منها بمسمار النبات؟ هب أن مسمار النبات خرج، من هو الذي يقدر على أن يخرج منه السنبلة؟ هب أن السنبلة خرجت، من هو الذي يقدر على أن ينبت فيها الحب؟ هب أن الحب خُلق، من الذي يقدر على أن ينميه وينقله من طور إلى طور حتى يكون تامًا مدركًا صالحًا للأكل؟ ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام/ ٩٩]؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ - يعني: عن النبات - شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا . . . ﴾ [عبس/ ٢٤ - ٢٨] هذا من غرائب وعجائب صنع رب العالمين - جل وعلا -؛ ولذا قال: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة/ ٢٢].

فإذا علمتم هذا وعرفتم أن خالق الكون هو الذي رفع هذه السماء، ودحا هذه الأرض، وأبرزكم من العدم إلى الوجود، وأنبت لكم الأرزاق = لا تعادلوا بهذا من لا يقدر على شيء، ولا تصرفوا شيئًا من حقوقه إلى عاجز ضعيف لا يقدر على شيء؛ ولذا قال: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا ﴾ [البقرة/ ٢٢]نظراء تصرفون لهم حقوقه في العبادة ﴿ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أنه الواحد الرب وحده، المحيي المميت، القادر على كل شيء، الذي يستحق أن يُعبد وحده.

ثم إن ربنا في هذه الآية - التي تلوت عليكم من سورة البقرة وتكلمت لكم كلامًا قليلاً عليها - ضمنها ثلاثة براهين من براهين البعث السائدة في القرآن العظيم؛ لأن المعارك في القرآن بين النبي ﷺ وبين منكري البعث من أعظم المعارك، وإن كانت المعركة العظمى بين

الرسل والأمم في عبادة الله وحده، إلا أنهم ينكرون البعث يقولون: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الدخان/ ٣٥] ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنعام/ ٢٩] ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النازعات/ ١٢] ﴿ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس/ ٧٨] كل هذا إنكار منهم للبعث، والله ـ جل وعلا ـ أكثر في القرآن العظيم من ثلاثة براهين يقيمها ـ براهين عقلية ـ على أنه يبعث الناس بعد الموت، أشار إلى ثلاثة منها في هذه الآية الكريمة التي ذكرناها لكم الآن، وكرر الرابع منها خمس مرات في هذه السورة الكريمة في غير هذه الآية.

أما البراهين الثلاث السائرة في القرآن بكثرة التي أشير إليها هنا:

فالأول منها: هو أنه خلقنا واخترعنا ابتداءً، المشار إليه في قوله في الآيات التي تلونا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة/ ٢١] يعني: ومن خلقكم أولاً هو قادر على أن يعيدكم ثانية؛ لأن الإعادة أيسر من الاختراع والابتداء، ولو سألت أطرف عاقل في الدنيا: أي الفعلين أصعب: اختراع الفعل وابتداؤه أولاً، أو إعادته بعد أن فُعل مرة أخرى؟ الجواب طبعًا: إعادته بعد الاختراع أسهل من اختراعه. وإن كان الله ـ جل وعلا ـ لا يصعب عليه شيء؛ ولأجل هذا ترى هذا البرهان كثيرًا في القرآن كقوله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج/ ٥] ولا يكون البعث أبدًا أصعب من الإيجاد الأول من تراب. وكقوله جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي الإيجاد الأول ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الواقعة/ ٦٢] أي: من أوجد أولاً قادر على الإيجاد ثانية. وكقوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ

﴿ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾ [يس/ ٧٨ ـ ٧٩]. وقوله جل وعلا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم/ ٢٧] ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤ ﴾ [الأنبياء/ ١٠٤] وكقوله جل وعلا: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥ ﴾ [ق/ ١٥] وكيف يلتبس عليكم الخلق الجديد وأنتم تعلمون الخلق الأول؟ ولأجل هذا قال مخاطبًا للإنسان: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ [التين/ ١ ـ ٤] ثم قال مرتبًا على هذا: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ ﴾ [التين/ ٧] ما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء وقد علمت أني خلقتك أولاً؟ وهذا البرهان متكرر في القرآن تكررًا كثيرًا لا يحصى؛ ولذا نص الله في آيات من كتابه على أنه لاينكر البعث إلا من نسي الإيجاد الأول، كما قال في قوله جل وعلا: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾ [يس/ ٧٨] إذ لو تذكر الإيجاد الأول لعلم أن من أوجد أولاً قادر على أن يوجد ثانية، وكقوله جل وعلا: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ﴾ [مريم/ ٦٦ ـ ٦٨] وهذا البرهان كثير في القرآن، وقصدنا التمثيل بآيات متعددة.

البرهان الثاني: هو خلق السموات والأرض المشار إليه في قوله: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ يعني ومن خلق هذه الأجرام العظيمة الهائلة فمن المعلوم أنه قادر على إعادة الإنسان الضعيف المسكين؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر قادر بالأولى على أن يخلق

الأضعف الأصغر، وهذا برهان كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر/ ٥٧] أي: ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادر على خلق الأصغر من باب أولى، وكقوله جل وعلا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ﴾ [الأحقاف/ ٣٣] لأن من خلق الأعظم قادر على أن يخلق الأصغر، وكقوله جل وعلا: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [الإسراء/ ٩٩]. وقد ألقمهم حجرًا في قوله: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النازعات/ ٢٧ ـ ٣٢] الجواب: هذا الذي فعل في السماء والأرض أشد وأعظم خلقًا، أي: ومن قدر على الأشد الأعظم فمن باب أولى أنه قادر على الأخف الأصغر، وهذا برهان كثير في القرآن، والقصد التمثيل بآيات، وبيان ما اشتملت عليه الآيات من الغرائب والعجائب والإشارات.

الثالث من هذه البراهين: هو إحياء الأرض بعد موتها؛ لأن من أحيا الأرض بعد موتها ـ تجد الأرض قاحلة ميتة لا نبات فيها مغبّرة، ثم إن الله ينزل المطر فتجدها حية خضراء ترفل في أحسن الحلل من جميع النباتات، فمن أعاد هذا النبات بعد العدم ـ قادر على إحياء الإنسان بعد العدم، لأن ماجاز على المثل يجوز على مماثله، وهما جرمان كانا معدومين، ومن أوجدهما أولاً أعاد هذا، ونحن نشاهد فنعلم أنه قادر على الثاني، وهذا برهان كثير أيضًا في القرآن أشير له بقوله هنا: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ ﴾ [البقرة/ ٢٢]

والآيات التي يُشار فيها إلى هذا البرهان على البعث كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ ﴾ [فصلت/ ٣٩] ومن هذا قوله جل وعلا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الأعراف/ ٥٧] أي: من قبورهم أحياء كما أخرجنا النبات، وقال جل وعلا: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾ [ق/ ٩ ـ ١١] أي: كذلك خروجكم من قبوركم أحياء بعد الموت كما أحيينا الأرض بالنبات بعد الموت، وقال جل وعلا: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩ ﴾ [الروم/ ١٧ ـ ١٩] أي: من قبوركم أحياء بعد الموت، وقال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾ [الروم/ ٥٠] والآيات القرآنية في هذا كثيرة جدًا في كتاب الله والقصد التمثيل.

أما البرهان الرابع على البعث الذي لم يذكر في هذه الآية ـ الذي بيّنا أنه تكرر في سورة البقرة خمس مرات ـ فهو: ما جاء في القصص الثابتة في القرآن من أن الله أحيا بعض الأموات في دار الدنيا والناس ينظرون؛ لأن من أحيا نفسًا واحدة بعد أن ماتت فهو قادر على إحياء جميع الأنفس لاستوائها ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ ﴾ [لقمان/ ٢٨] من ذلك من المواضع الخمسة قوله في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ

﴿قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة/ ٥٥ ـ ٥٦] فمن بعث هؤلاء بعد موتهم كما صرح به في المحكم المنزل قادر على بعث كل إنسان بعد الموت.

الموضع الثاني: من المواضع الخمسة: قوله في قتيل بني إسرائيل لما ضربوه ببعض البقرة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة/ ٧٣] كما أحيا هذا الميت وبني إسرائيل ينظرون حتى وقف وأوداجه تشخب دمًا وقال: «قتلني فلان» ـ وهم ينظرون ـ من أحيا هذا الميت فهو قادر على إحياء جميع الموتى كما أشار له الله بقوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما أحيا هذا القتيل وهم ينظرون كذلك يحيي الموتى.

الموضع الثالث: من هذه المواضع: الألوف الذين خرجوا خوفًا من الطاعون فأماتهم الله جميعًا ثم أحياهم، المذكورون في قوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة/ ٢٤٣].

الموضع الرابع: عزير وحماره؛ لأنه مكث مائة سنة ميتًا وحماره متمزق العظام، ثم كان ما قصّه الله في قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُها﴾. وفي قراءة

أخرى[1]: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

الموضع الخامس: طيور إبراهيم حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ يذكرون في قصة إسرائيلية أن هذه الأربعة: غراب ونسر وديك وطاووس ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فرق لحومها وريشها ورؤوسها على الجبال ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ فدعاهن فصار الريش يطير إلى الريش، واللحم إلى اللحم، والعظم إلى العظم، والرأس إلى الجثة، حتى جاءت تمشي لا بأس عليها؛ ولذا قال: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة/ ٢٦٠].

قد ذكرنا من هذه الجُمل أن الله ـ جل وعلا ـ رتب في أول هذه السورة الكريمة هذا الترتيب العجيب، ونوّه بشأن هذا القرآن العظيم الذي هو النور المبين وفيه خير الدنيا والآخرة، ثم بين أن الناس بالنسبة إليه **ثلاث طوائف**:

طائفة آمنت به ظاهرًا وباطنًا.

وطائفة كفرت به ظاهرًا وباطنًا.

وطائفة آمنت به ظاهرًا وكفرت به باطنًا.

وضرب لهذه الأمثال، ثم بين أنه ينبغي للمسلمين أن يكونوا من

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران (ص١٥١).

تلك الطائفة الطيبة، وأن يتجنبوا أن يكونوا من الطائفتين الخبيثتين.

ثم أشار إلى أن مدار ذلك على تحقيق كلمتين فيهما خير الدنيا والآخرة وعليهما قوام السماء والأرض (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فبين الأولى، وفصل نفيها وإثباتها، وجاء ببراهينها القطعية مضمنة براهين البعث، ثم جاء بالثانية موضحًا إياها ببرهان الإعجاز. هذه العبادة التي أشير إليها هنا هي فروع كثيرة وأنواع منتشرة، وهي طاعة الله في جميع ما أمر به، وجميع ما نهى عنه، كما قال الله جل وعلا: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف/ ١١٠].

والقرآن العظيم هو النور والميزان العدل الذي يُعرف به الحق من الباطل، والله يقول: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديد/ ٢٥] وقد بين لنا القرآن ميزانًا نعرف به أعمالنا ومحكًا ننقد به أعمالنا، فنعرف أزائفة هي أم خالصة، أحق هي أم باطل، وقد بين القرآن العظيم أن المسلم إذا أراد أن يعرض عمله على ميزان يعرف به أعمله صالح أم طالح أن ذلك الميزان يتركب من ثلاثة أشياء، إذا كانت هذه الثلاثة الأشياء موجودة في ذلك العمل فهو عمل صالح كما ينبغي، وإن اختل منها واحد فالعمل طالح غير صالح.

الأول: من هذه الأمور الثلاثة: هو أن يكون ذلك العمل مطابقًا في ظاهر الأمر لما جاء به سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن الله هو الملك الأعظم الجبار لا يقبل أن يتقرب إليه إلا طبق ما أمر؛ ولذا يقول: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾

[الشورى/ ٢١] ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس/ ٥٩] ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر/ ٧] ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء/ ٨٠].

الثاني: أن يكون الإنسان فيما بينه وبين ربه في داخل نيته التي لا يطلَّع عليها إلا الله أن يكون مخلصًا لله في ذلك العمل كما قال الله جل وعلا: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة/ ٥] وقال: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر/ ١١، ١٥]. فمن عبد بغير إخلاص جاء بما لم يؤمر به؛ لأن الله يقول: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.

الثالث: أن يكون ذلك العمل مبنيًا على أساس العقيدة والتوحيد الصحيح؛ لأن العقيدة كالأساس والعمل كالسقف، فالسقف إذا وجد أساسًا ثبت عليه، وإن لم يجد أساسًا انهار، والله يقول: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النساء/ ١٢٤] فيقيد بالإيمان، ثم إنه يبين الذين يعملون الصالحات من غير إيمان ويقول: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان/ ٢٣] ويقول: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود/ ١٥ ـ ١٦] والعقيدة الصحيحة التي هي الأساس الذي يبنى عليه العمل ضابطها المنطبق على جزئياتها هو الاستضاءة بنور هذا القرآن العظيم، لأن العقول مخلوقة قاصرة واقفة عند حدها، والمُعْتَصَم الوحيد هو نور القرآن العظيم، فما قاله الله

ورسوله وثبت عنهما نقوله، وما لم يقولاه لم نقله، وما أوجباه نعمل به، وما سكتا عنه نتركه، وما فصل فيه الكتاب والسنة نفصل، وما أجمل فيه نجمل، وما سكتا عنه نسكت، ولا نتكلف ما لا نعلم.

ونحن دائمًا نبين في المناسبات أن هنالك مسائل مثلاً كآيات الصفات زلت فيها عقول الناس، وضل قوم بالإفراط وقوم بالتفريط، وقوم شبهوا، وقوم عطّلوا، ونحن دائمًا ندعوا أنفسنا وإخواننا إلى طريق القرآن والعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهي التمسك بكتاب الله، وأن استقراء القرآن دل على أن الطريق الواضح طريق السلامة في ذلك تتركّز على ثلاثة أُسس كلها في ضوء القرآن العظيم، فمن جاء بها كلها فقد سلك طريق السلف التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه وخلفاؤه الراشدون والقرون المشهود لهم بالخير، ومن أخل بواحد منها فقد أوقع نفسه في مهواة قد لا يتخلص منها. هذه الأسس الثلاثة (...)[1].



(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وتجد الكلام على هذا الموضوع في المحاضرتين (٢، ٤)، إضافة إلى مواضع متعددة من (العذب النمير).

[٢]

(اشتمال القرآن على خيري الدنيا والآخرة)

ومن ذلك :

١ ـ بيان المعتقد الصحيح في آيات الصفات .

٢ ـ بيان الموقف الصحيح من الحضارة الغربية .

٣ ـ بيان أن الإسلام دين القوة والتقدم في جميع الميادين .

/ [1] والآن نقول: إن هذا القرآن العظيم فيه خير الدنيا والآخرة، ولم يضمن الله لأحدٍ ألاّ يكون ضالاً في الدنيا ولا شقيًا في الآخرة إلا المتمسك بهذا القرآن العظيم ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه/ ١٢٣] وهذا القرآن العظيم بين أن المعتقد المنجي الذي هو طريق سلامة محققة في آيات الصفات يتركز على ثلاثة أُسس كلها في ضوء آية من كتاب الله، فمن جاء بهذه الأُسس الثلاثة فقد سار في ضوء القرآن العظيم، ولقي الله متمسكًا بالعروة الوثقى على المحجة البيضاء التي كان عليها محمد ﷺ وأصحابه، وهو طريق السلف، وقد قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وصدق: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها).

أول هذه الأسس الثلاثة ـ أيها الإخوان ـ نكرره لكم مرة بعد مرة: هو الأساس الأكبر، والتوحيد الأعظم، والحجر الأساسي للصلة الصحيحة بخالق هذا الكون، هذا الأساس: هو تنزيه خالق السموات والأرض التنزيه التام عن أن يُشبه شيئًا من خلقه في أي شيء من صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم، وكيف يشبه الخلق خالقه؟ أليس أثرًا من آثار قدرته وإرادته؟ وكيف تشبه الصنعة صانعها؟ هذا لا يخطر في الأذهان السليمة من أقذار التشبيه. وهذا الأصل في ضوء قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى/ ١١] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص/ ٤] وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل/ ٧٤].

---

(١) من الشريط الرابع.

وهذا الأصل هو أساس الخير، والحَجَر الأساسي للتوحيد، فمن حققه حسنت صلته بالله، وكان على ثقة صحيحة من عقيدته؛ لأنه هو الأساس الأعظم والطريق الأكبر في هذا الطريق، تنزيه خالق الكون عن مشابهة خلقه في جميع أنواع صفاتهم، وفي جميع أنواع المشابهات، فإذا استولى هذا الأساس على القلب، وطهرت أرضه من أقذار التشبيه، وعظّمت رب العالمين كما ينبغي، وعلمت أنه لايمكن أن يشبهه شيء من خلقه:

فالأساس الثاني من الأسس الثلاثة هو: تصديق الله فيما أثنى به على نفسه، وتصديق رسوله فيما أثنى به على ربه؛ لأنه لايصف الله أعلمُ بالله من الله، ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة/ ١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم/ ٣، ٤] ولكن هذا الإيمان والتصديق لصفات الله التي مدح الله بها نفسه، أو أثنى عليه بها رسوله إيمانًا مبنيًّا على أساس التنزيه الكامل ـ وهذا التعليم الذي قلت لكم الآن في هذين الأساسين ـ لم آت به من تلقاء نفسي، وإنما أخذته من نور المحكم المنزل؛ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى/ ١١] فإتيانه بـ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيه سر أكبر، ومغزى أعظم، وتعليم سماوي لا يترك في الحق لبسًا ألبتة.

وإيضاح هذا: أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر صفتان يتصف بهما جميع الحيوانات ـ ولله المثل الأعلى ـ فالبقر يسمع

ويبصر، والبعير يسمع ويبصر، والإنسان يسمع ويبصر، ولأجل هذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ مقترنًا بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني: لا تتنطع يا عبدي يا مسكين فتنفي عني صفة سمعي وبصري بالدعاوي الباطلة: أنك لو أثبت السمع والبصر كنت مشبهًا بالخلق. لا؛ أثبت لي سمعي وبصري إثباتًا مبنيًا على أساس التنزيه مراعيًا فيه قولي قبله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

فأول الآية الكريمة تنزيه كامل من غير تعطيل، وآخرها إيمان بالصفات إيمانًا كاملاً من غير تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل. فذكرنا أساسين من هذه الأسس الثلاثة:

الأول: هو الأساس الأعظم الذي هو رأس الخير: تنزيه خالق الكون عن مشابهة الخلق.

الثاني: الإيمان بالصفات، وتصديق الله ورسوله فيما أثنى به على نفسه، أو أثنى عليه به رسوله تصديقًا مبنيًا على أساس التنزيه على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى/ ١١].

الأساس الثالث: هو أن نعلم أن عقولنا المسكينة مخلوقة واقفة عند حدها، وأن خالق الكون أعظم وأكبر وأجل وأنزه من أن تحيط به العقول، وهذا الأساس مبين في آية من سورة طه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه/ ١١٠].

فمن اعتقد هذه الأسس الثلاثة فنزه خالق الكون عن مشابهة الخلق في ضوء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وأثبت له ما أثبته لنفسه على أساس

التنزيه في ضوء ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى/ ١١]، وقطع الطمع عن إدراك الكيفيات = لقي الله مخلصًا سالمًا من ورطة التشبيه، ومن ورطة التعطيل، ومن ورطة التكلف وزَجِّ نفسه فيما لا يعنيه ولا يقدر عليه.

هذا نموذج قليل نريد أن نبينه لكم هنا، ثم إنا بعد هذا النموذج القليل الواضح الذي يُبَسِّط عقيدة السلف على ضوء القرآن العظيم نُؤكد لكم نحن الآن في هذه الدنيا عن قريب سننتقل إلى القبور لاشك، ونُنقل من القبور إلى عرصات القيامة، ونناقَش على ماقدمنا من حقير وجليل، ونجد كل ما قدمنا مسطورًا مكتوبًا في كتاب أحصاه خالق الكون ـ جل وعلا ـ ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة/ ٦] وهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، يقال للواحد منا ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء/ ١٤] ولاشك أن مما نناقش فيه: ماذا نقول فيما أثنى به ربنا على نفسه؟ فمن لقي الله منا وهو مُنَزِّه ربه عن تشبيه الخلق، مُصدِّق ربه فيما قال، قاطع طمعه عن إدراك الكيفية كان على طريق سلامة محققة، وأنا أؤكد لكم أن هذه الأسس الثلاثة لا تأتيه من واحد منها يوم القيامة بلية ولا ويل ولا مشكلة، فلا يقول له الله: لم تنزهني عن مشابهة خلقي؟ لا، أبدًا، ولا يقول له: لم تصدقني فيما أثنيت به على نفسي، وتؤمن بصفاتي على أساس التنزيه؟ لا، أبدًا، ولا يقول له: لم لا تَدَّعي أن عقلك محيط بي؟ لا، أبدًا. فهي طريق سلامة محققة.

ثم إنا الآن بعد هذه النقطة التي بيناها اليوم وأشرنا إليها الآن نبين

لكم ـ أيها الإخوان ـ الموقف الطبيعي والذي ينبغي أن يُفهم ويسلك لتكونوا على بصيرة من هذه الفِكَر المتناقضة التي ضاع الإسلام والمسلمون ضحيتها، وهو ما ذكرنا الآن أن هناك طرفان: طرف من الشيوخ الجامدين الذي يظنون أن كل تقدم في ميدان من ميادين الحياة أنه كفر ومضادةٌ للدين!!، وهذه جناية على الإسلام والمسلمين، وفكر غير صواب، وطائفة أخرى ثقفها الأجنبي ثقافة مضادة للإسلام، وصبغها كيف يشاء، فكانت تنظر إلى الدين بغير حقيقته، تزعم وتعتقد أن كل تمسك بالدين أنه رجعية وانحراف عن مسايرة ركب التطور وجمود بالأمة وخلود بها إلى الهاوية!!

هاتان الفكرتان ـ أيها الإخوان ـ كلتاهما خاطئة وكلتاهما ضرر على الأمة، ونحن نبين لكم الموقف الطبيعي كما ينبغي، إيضاح ذلك: أن هذا النوع المسمى بالإنسان ـ أيها الإخوان ـ: لو كان مخلوقًا من عنصر واحد لكان يمكن أن يكتفي باتجاه واحد، ولكنه مخلوق من عنصرين مختلفين في الحقيقة غاية الاختلاف، أحدهما: اسمه الجسد، والثاني: اسمه الروح، وللجسد متطلبات لا تقوم بها متطلبات الروح، وللروح متطلبات لا تغني عنها متطلبات الجسد، فلابد أن يسعى الإنسان سعيًا مزدوجًا لمتطلبات الروح ومتطلبات الجسد، فإهمال متطلبات الروح هو الويلة الكبرى على العالم، وهو مشاهد الآن، الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، أعني نجحا في خدمة الإنسان من حيث العنصر الجسدي في جميع أنواع الماديات والتنظيميات، وخدم الإنسان من حيث إنه جسد وجسم بخدمات هائلة لا يعبر عنها، ولكن الحضارة الغربية أفلست كل الإفلاس من جهة الناحية الروحية؛ لأنهم

أهملوا الأرواح ولم يُرَبُّوهَا على نظام تعليم سماوي شرعه خالق الكون، فصاروا في غاية من انحطاط الأخلاق، والتمرد على نظام السماء؛ ولأجل أن تلك الأرواح غير مرباة ولا مهذبة على ضوء الوحي فتراهم الآن يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر والمجلس بعد المجلس ليتخلصوا من القوة التي فعلوا ويدمروها، ولو كان واحد منهم واثقًا بأنه لو دمّر ما عنده لدمر الآخر ما عنده لبادروا كلاً ليكتفوا شرها، وما ذلك إلا أنها تدبرها أرواح خبيثة ليست مرباة على ضوء وحي سماوي، وهذا يبين أن إهمال الناحية الروحية يهدد العالم كله بخطر دامي، فأنياب الأسد ـ مثلاً ـ وأظفاره قوة حيوانية هائلة، ولكن النفس التي تديرها نفس بهيمية طبيعتها الافتراس والابتزاز والغصب والقتل فلا خير فيها للبشرية.

ونحن نضرب لكم الأمثال في هذا: أن القرآن ـ وهو أساس دين الإسلام ـ يبين أن الإنسان لابد أن يكدح في عمله كدحًا قويًا مع الصلات الروحية برب العالمين، ونضرب لكم أمثالاً لهذا: إن شئتم أن تحققوا هذا فاقرؤوا آيتين من سورة النساء ـ كثيرًا ما نذكرهما في المناسبات ـ في صلاة الخوف، وهما قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ [النساء/ ١٠٢] هذا وقت التحام الكفاح المسلح، والرجال تسقط رؤوسهم عن أعناقهم، وفي هذا الوقت الضنك الحرج نور القرآن العظيم ينظم الخطة العسكرية على أبدع وجه وأكمله، في الوقت الذي يحافظ فيه على آداب من آداب الأرواح السماوية وهو الصلاة في

الجماعة، هكذا فليكن المسلم على ضوء القرآن العظيم.

وتقرؤون أن الله ـ جل وعلا ـ يقول في سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ [الأنفال/ ٤٥] قوله ﴿ فَٱثْبُتُواْ ﴾ هذا تعليم عسكري سماوي، وهو الصمود في الميدان في خطوط النار الأمامية، وفي هذا الوقت الضنك الحرج؛ خالق الكون يقول: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال/ ٤٥].

ولا يخفى عليكم أن نبي الله داود من أنبياء سورة الأنعام الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ﴾ [الأنعام/ ٨٤] إلى آخر من عد منهم، ثم لما أتم عدهم قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام/ ٩٠] وأَمْرُ النبي ﷺ أَمْرٌ لنا؛ لأن أمر القدوة أمر لأتباعه، وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن الأوامر الخاصة بالرسول تشمل الأمة كلها، وسنضرب لكم أمثلة ثم نرتب المقصود على ذلك، من الأمثلة القرآنية الدالة على أن الخطاب الخاص لفظه بالرسول يشمل حكم الأمة: قوله تعالى في صدر سورة الطلاق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ باسم النبي، ثم بين أنه يدخل في حكمه الأسود والأحمر حيث جمع وعمم في قوله: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ ﴾ [الطلاق/ ١] إلى آخر ماذكر، فلو كان مختصًا به لقال: إذا طلقت النساء فطلق وأحص العدة واتق الله لا تُخرج. ونظير ذلك قوله في صدر سورة التحريم في خطاب خاص بالنبي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ [التحريم/ ١] ثم بين بخطاب أن هذا شامل للأسود والأحمر حيث

قال بعده: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [التحريم/ ٢] جميعًا عن بكرة أبيكم، ونظير ذلك في صدر سورة الأحزاب حيث قال الله في صدرها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ في خطاب خاص بالنبي، ثم قال: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ إلى أن قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٢] فعمم الحكم ليبين أن كل الأمة داخلة في حكم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ وقد قال ـ جل وعلا ـ مخاطبًا للنبي وحده: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ ثم بين الشمول للأسود والأحمر بهذا الخطاب الخاص، قال: ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس/ ٦١].

ومن أصرح الأدلة في هذا آيتا الأحزاب وآية الروم، أما آيتا الأحزاب: فالأولى منهما قوله تعالى في زينب بنت جحش: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب/ ٣٧] فـ«كاف» الخطاب في قوله: ﴿ زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ واقعة على خصوص سيدنا محمد ﷺ لأنه المخاطب بتزويجه إياها، وقد بين الله أن هذا الخطاب يقصد به شمول الأسود والأحمر حيث قال بعده مقترنًا به: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٣٧]. وآية الأحزاب الثانية أن الله قال في النبي ﷺ: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ لو لم تكن الأمة داخلة لما احتيج إلى أن يخرج الأمة بقوله: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب/ ٥٠] وأما آية الروم فقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾

[الروم/ ٣٠ ـ ٣١] ﴿ ۞ مُنِيبِينَ﴾ أي: جميع الأمة، وهو حال من ضمير الفاعل في قوله: ﴿ فَأَقِمْ﴾ فأقم أنت يا نبي الله وجهك في حال كونكم جميعًا منيبين. وقد أطبق أهل اللسان العربي على أن الحال الحقيقية ـ أعني التي لم تكن سببية ـ عند النحويين تلزم موافقتها لصاحبها إفرادًا وتثنيةً وجمعًا وتأنيثاً وتذكيرًا، فلا يجوز أن تقول: جاء زيد ضاحكين، ولا جاءت هند ضاحكات، ولا قم أنت حال كونكم قانتين وساجدين، لا، فلما قال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ في حال كونكم منيبين دل على دخول الأمة.

إذا علمتم هذا فاعلموا أن النبي ﷺ لما قال له الله: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام/ ٩٠] هدى هذه الرسل المذكورين أنا ندخل في ذلك.

وقد نعرض هنا لمسألة: أن بعض الجهلة يقول: كيف يؤمر النبي ﷺ بالاقتداء بالرسل وهو سيدهم وأفضلهم؟

والجواب: أن أمره بالاقتداء بهم أظهر لفضيلته؛ ليشاركهم فيما فعلوه من الخير، ويزيد عليهم بخيرات كثيرة لم تكن في شرائعهم، وإذا شاركهم بما عندهم وزاد عليهم كان ذلك أبين للفضل، وقد ثبت في صحيح البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: من أين أخذت السجدة في ص؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ [الأنعام/ ٨٤] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام/ ٩٠] فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ[1]، هذه الآيات والأحاديث تدلنا على أن ما

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (سورة ص) حديث رقم (٤٨٠٧) ٨/ ٥٤٤.

جاء بشرعنا من الأمر باتباع داود أننا مأمورون به.

إذا عرفتم هذا فالله يقول لداود: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ/ ١١] وهذا أعظم كفاح عسكري في وقته؛ لأن معنى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي: دروعًا سابغات تحصن بها نفسك وجيشك في الميدان إذا التقت الصفوف، وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ/ ١١] علمه بها أصول الحدادة؛ لأن السرد في لغة العرب: نسج الدرع، ومعنى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ اجعل الحلق والمسامير بأقدار متناسبة؛ لأن المسمار إن كان أكبر من الحلقة كسرها، وإن كان أصغر منها لم يشدها كما ينبغي، ولما بين له هذا الاحتياط العسكري في الميدان قال بعده: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [سبأ/ ١١] ونحن مأمورون باتباعهم كما بينا، فعلينا أن نستعد لكفاح العدو، وأن نعمل صالحًا ونطيع خالق الكون، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال/ ٦٠] هذا أمر من خالق الكون، وخالق السموات والأرض أوامره صعبة، والتكاسل والتناوم عنها ليس بالأمر الهين؛ لأن الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور/ ٦٣] ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب/ ٣٦] فجعل أمر الرسول مانعًا من الاختيار موجبًا للامتثال، وقد قال لإبليس: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف/ ١٢] كأنه يقول للمتواكلين المتكاسلين: مالكم أن لا تعدوا القوة الكافية إذ أمرتكم؟ والنبي ﷺ وهو القدوة الأكبر والمربي الأعظم، وسيد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هكذا كان يفعل، كان يعمل بالأمور الدينية، ويتقدم أعظم التقدم في الميادين الحيوية الدنيوية،

وهو مُرْضٍ ربه، وعلى صلة بربه.

وأنا أضرب لكم بعض الأمثال في أنه ينتفع بالأمور الدنيوية ولو كان إنتاجها من الكفرة الفجرة الخنازير أبناء الخنازير، نضرب لكم ثلاثة أمثلة من هذا نضرب المثل بها دائمًا:

منها: أن النبي ﷺ لما حاصره الأحزاب ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم المذكور في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب/ ١٠ ـ ١١] قال له سلمان: كنا إذا خفنا خندقنا[1]. هذه مثلاً خطة عسكرية، الأذهان التي أنتجتها من الدنيا أذهان كفرة فجرة مجوس يسجدون للنار، فالنبي ﷺ لم يقل: هذه خطة عسكرية نجسة؛ لأن أصلها من الكفار، وقد اخترعها المجوس!! لا، أخذ الخطة الدنيوية من الكافر وهو مرضٍ ربه، محافظ على آداب السماء والآداب الروحية.

ومن أمثلة هذا: أن النبي ﷺ لما تكالبت عليه قوى الشر، واضطر إلى الخروج من وطنه، ودخل هو وصاحبه في الغار كما نص الله في سورة براءة: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة/ ٤٠] وجميع الدنيا حرب عليه، والطريق تُبث فيها العيون والرصد، وجد خبيرًا كافرًا واسمه: عبدالله بن الأُريقط الدؤلي، كافر يسجد للصنم إلا أنه عنده خبرة دنيوية، فهو يعرف الطرق، ويحاشي الطرق المعهودة، ويأتي به

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٤).

من طرق لم يعلمها الناس حتى يَسْلَم من الرَّصَد والعيون المبثوثة أمامه؛ النبي لم يقل: هذه خبرة كافر يسجد للصنم فهي خبرة نجسة قذرة أتركها!! لا، استعان بخبرته وأعطاه مراكبه هو وصاحبه، ثم سار منتفعًا بخبرته حتى أوصله المدينة بسلام.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه هَمّ أن يمنع وطء النساء المَرَاضِع؛ لأن الغِيْلَة التي هي وطء المرضع، كان العرب يزعمون أنها تُضعف عظم الولد، وإذا ضرب الرجل بسيفه فنبا سيفُه عن الضريبة قالوا: هذا رجل غِيْلَت أمه، يعني: وُطئت أمه وهو يرضع، وكان شاعرهم يقول في هذا الميدان[1]:

فوارس لم يُغَالُوا في رَضَاع ... فتنبو في أَكُفِّهُم السيوف

فلما أخبرته فارس والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم، أخذ بهذه الخطة الطبية ولم يقل: أصل تجاربها من الكفرة[2].

وهذه أمور وأمثلة تدل على أن النبي ﷺ وهو سيد [الخلق][3] يأخذ الأمور الدنيوية ولو اخترعتها أذهان كافرة فاجرة على حد قولهم: «اجتن الثمار وألق الخشبة في النار» وهو فيما بينه وبين ربه مرضٍ ربه جل وعلا. وعلى كل حال فنحن نضرب دائمًا الأمثال؛ لأن الأمثال

---

(١) البيت في الكامل (ص١٧٧).

(٢) الحديث أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب: جواز الغيلة، حديث رقم (١٤٤٢) ٢/١٠٦٦.

(٣) في الأصل: الكون، ومابين المعقوفين زيادة على الأصل.

تقرب المعقولات كالمحسوسات.

والاستقراء الصحيح دل على أن الحضارة الغربية فيها نافع غاية النفع، وضار غاية الضرر، أما النافع منها فهو ما أنتجته في الميادين الحيوية في الماديات والتنظيميات، وما خدمت به الإنسان من حيث إنه جسم في جميع أنواع الحياة، والضار منها: هو الإفلاس الروحي والتمرد على نظام السماء الذي وضعه خالق الكون ـ جل وعلا ـ، فإذا عرفنا أن منها نافعًا ومنها ضارًا فنضرب لذلك الأمثال ـ مثل الموقف الطبيعي منها ـ مثل رجل بعيد عن العمران في آخر رمق من العطش، وجد سمًا فتاكًا وماءً عذبًا زلالاً، فالعقل الصحيح يحصر الأقسام عنده في أربعة: إما أن يشرب السَّم والماءَ معًا، أو يتركهما معًا، أو يشرب السم ويترك الماء، أو يشرب الماء ويترك السم. فإن شربهما معًا لم ينتفع بالماء؛ لأن السم يهلكه، وإن تركهما معًا مات في الطريق ولم يلحق بالقافلة، وسقط دون الركب، وإن شرب السم وترك الماء فهو رجل أحمق أهوج لا يدري خيرًا من شر، وإن كان عاقلاً فطبعًا أنه يشرب الماء ويترك السم، ونحن يؤسفنا كل الأسف أن المنتسبين للسياسة الذين يحركون دفّة الأمور عكسوا القضية، فشربوا من الحضارة الغربية سُمَّها القاتل الفتاك وهو ماجنته من الانحطاط الخُلقي والرذالة والتمرد على نظام السماء، وتركوا نافعها وهو التقدم الدنيوي في ميادين الحياة!!

ماأحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل[1]

---

(١) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه (ص١٧٤).

فعلينا جميعًا أن نعلم هذا، ونعلم أن دين الإسلام دين ميدان، ودين كفاح ليس دين نوم ولا تكاسل، ومن نام وتكاسل داسته نعال الأراذل، وكان حمارًا يقوده من شاء أن يقوده، فلابد من التقدم في الميدان، والدنيا كفاح لابد من العمل، ولكن الإنسان يعمل في دنياه وهو مرضٍ ربه، ولا يمنع العقل أن يكون الإنسان محافظًا على دينه في جميع السمت، وجميع الحركات والسكنات، وهو متقدم في الميادين الدنيوية كل التقدم كما عرفه التاريخ بالنبي ﷺ وأصحابه، نعم هنالك مشكلة عظمى هي محك المشكلات في هذا الزمن؛ ذلك لأن الكفار عرفوا من قيمة دين الإسلام ما جهله أو تجاهله المسلمون، وعلموا أن الدين الإسلامي إذا كان عند المسلمين على الوجه الصحيح لا يقف أمام المسلمين شيء، وأن قوة الإسلام تدك الجبال، فمن زمن الدولة العباسية وهم يعملون بضربه بالمعاول ليضعفوه، [وصار][1] جميع الميادين الحيوية مؤلفوها كفرة، ولم يؤلفوا تأليفًا ينتفع به الإنسان في ميدان من ميادين الحياة لا في تجارة، ولا سياسة، ولا عسكرية، ولا هندسة، ولا كيمياء إلا حطوا في تلك التآليف أفكارًا هدامة وعقائد زائفة مضللة تفصل الشخص عن دينه، ومرادهم بذلك أحد أمرين: إما أن يتخلف أولاد المسلمين عن ميادين الحياة فيبقون لقمة سائغة لمن جاءهم، أو يدخلوا في ميادين الحياة فينشبوا في الفخ الذي وضعوا لهم، وعلى المسلمين أن يتنبهوا لهذا، ويعلموا أولادهم العلوم الدنيوية، ويحذروا عليهم من تلك العقائد الهدامة والأمور التي

---

(١) في الأصل: «وصاروا».

تصدهم عن دينهم، وهذا يكون بالمراقبة، وباجتماع المسلمين، وتثقيف أولادهم ثقافة صحيحة، وبجمع أموال طائلة على حساب الناس والمسلمين واستجلاب مدرسين يتقنون العلوم الدنيوية ويميزونها مما جاء في الطريق من شوك وألغام.

وعلى كل حال فنحن الآن لايمكن أن نسترسل لأن فضيلة أخينا القاضي عنده أسئلة وأجوبة يريد أن يسجلها فلا يمكن أن نستغرق عليه الوقت، والسلام عليكم جميعًا ورحمة الله وبركاته، ونرجو الله لنا ولكم جميعًا العافية والتوفيق والسداد إلى ما يرضي الله ورسوله. . .

*****

[٣]

الإسلام دين القوة

تكريم الإسلام للمرأة

/[1] (. . .) لأن الطرق المعهودة بث الكفار عليها العيون والرَّصَد ليأخذوا النبي ﷺ ومن معه، فالنبي ﷺ لما وجد هذا الخبير الكافر لم يقل: خبرة هذا الخبير خبرة نجسة قذرة لأنها من كافر، لا. انتفع بخبرته، وأعطاه المراكيب، وراح به ومن معه، وساحل بهم، وتجنب الطرق التي عليها العيون والرَّصَد حتى أوصله إلى المدينة بسلام، وهذا يبين أن المسلم يأخذ الخطة الدنيوية من الكفار وهو فيما بينه وبين ربه مُرْضٍ ربه، وقد ثبت في صحيح مسلم ـ وهو أصح كتاب بعد كتاب الله وبعد صحيح البخاري ـ أن النبي ﷺ هَمَّ أن يمنع وطء النساء المراضع؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن المرأة إذا وطئها زوجها ولها ولد ترضعه أن ذلك الوطء يضعف عظم الولد ويضره، وكانوا إذا ضَرَب الرجل ونبا سيفُه عن الضريبة قالوا: هذا رجل غِيْل!! يعني وُطئت أمه [وهو يرضع][2]؛ لأن هذا الذي أضعف عظمه، وشاعرهم يقول في هذا الميدان[3].

فوارس لم يُغَالُوا في رضاع ... فتنبو في أكفهم السيوف

---

(١) من الشريط السابع، وأول المحاضرة غير موجود في التسجيل الذي بين أيدينا.
والشيخ رحمه الله يتحدث عن الإسلام وأنه دين القوة والتقدم في جميع الميادين، وأنه لا يمنع من الاستفادة مما عند الكفار من الأمور النافعة. وقد سبق الكلام في ذلك في المحاضرة رقم (٢)، كما سيأتي ضمن المحاضرة رقم (٤). كما تجد نظائره في العذب النمير في مواضع متعددة.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

(٣) تقدم قريبًا في المحاضرة الثانية.

فالنبي ﷺ هَمَّ أن يمنع وطء النساء المراضع لهذا السبب فأخبرته فارس والروم بأنهم يفعلون هذا ولا يضر أولادهم، فأخذ هذه الخطة الطبية من الكفرة الفجرة الخنازير أبناء الخنازير فارس والروم، ولم يقل: هذه الخطة الطبية قذرة نجسة، لأن أصلها من الكفار!! لا.

هذه أمثلة وأضواء نلقيها لإخواننا ليتحققوا بها الموقف الطبيعي لهذه المشاكل الراهنة التي خيمت على الدنيا، فعلينا جميعًا أن نفهم الوضع على حقيقته، ونعلم أن دين الإسلام ليس حجر عثرة في طريق التقدم، بل هو دين التقدم في جميع الميادين، ومن لم يتقدم في الميادين فهو مخالف أمر الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال/ ٦٠] فقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أمر من خالق هذا الكون، وأوامر الله ليست بالشيء الهين، بل هي أوامر خالق الكون، وقد قال لإبليس لما عصى أمره: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف/ ١٢].

فالذين لا يعدون القوة بل يتواكلون ويتكاسلون وينامون من أين لهم أن الله لا يقول لهم كما قال لإبليس: مالكم ألا تعدوا القوة إذ أمرتكم؟ وهذا يبين أن الضعف والعجز والتواكل هو تمرد على نظام السماء، ومخالفة لأوامر القرآن، وأن دين الإسلام دين تقدم في الميدان وكفاح.

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم[1]

ومن المؤسف كل الأسف الذي يأسف له المسلم ويحزن أن كثيرًا

---

(١) يتيمة الدهر (١/ ٢٥٨)، الخزانة (١/ ١٩٣)، صبح الأعشى (١١/ ١٩٩).

ممن يحركون الدّفة السياسية في أقطار الدنيا عكسوا القضية!! إنا لله وإنا إليه راجعون، فأخذوا من الحضارة الغربية سُمَّها الفتاك وضررها المحض، وهو ما أنتجته من الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، والطعن في الدين الذي هو وضع خالق هذا الكون، في الوقت الذي لم يحصلوا فيه على شيء مما أنتجته من الفوائد الدنيوية، فعكسوا القضية على خط مستقيم!!

ماأحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل[١]

ثم إنا هنا نلقي بعض الكلام يخص بأخواتنا: أيتها الأخوات المسلمات في أقطار الدنيا: اعلمن أن الله تبارك وتعالى أوجب عليكن مكارم الأخلاق اللائقة بشرفكن من الصيانة والستر والعفاف، وإرضاء الفضيلة، فالتي تريد منكن أن تعمل إذا تيسر لها أن تعمل في بيت زوجها فإن ذلك معاونة عظمى في بناء المجتمع الإنساني؛ لأن المرأة بصفتها الطبيعية تقوم بخدمات هائلة للمجتمع الإنساني قد لا يقوم الرجل بمثلها، وهناك بعض الخدمات لا يمكن أن يقوم بها غيرها؛ لأنها هي التي تحمل الأولاد في بطنها، وهي التي تضعها في النفاس، وهي التي ترضع، وتقوم على الرضيع، وعلى الفطيم، وتعالج المريض، وتقوم بخدمات البيت، فإذا خرج زوجها في ميدان من ميادين الحياة إلى جهاد أو إلى عمل من الأعمال جاء فوجد قرينه الآخر وقَيِّمه الكبير يحفظ كل شيء، وجد طفله الرضيع مُرْضَعًا، والفطيم

---

(١) تقدم قريبًا في المحاضرة الثانية.

محفوظًا، والمريض معالجًا، وجميع لوازم البيت مهيأة، وهذه خدمات إنسانية ترضي الله، وهي للمجتمع الإنساني مساهمة لا يوجد نظيرها، زيادة على هذا أن هذا يكون مع العفاف والكرامة التي تليق بالشرف والمروءة، وترضي الله والرسول، وترضي الضمير الإنساني.

فالشيطان لاشك يغيظه هذا الأمر أن يتعاون هذان النوعان هذه المعاونة الفعالة العظيمة على بناء المجتمع في دينه ودنياه فينخس في أذن المرأة ويقول: جعلوك دجاجة، وأنت محبوسة دائمًا!! ثم يخرجها في الميدان لتكون مائدة لخونة الأعين!! المرأة جمالها يتلذذ به الإنسان، والتلذذ بها خير متاع يوجد في متاع الدنيا، والعين الخائنة إذا نظرت إلى جمالها فقد ظلمت ذلك الجمال، واستغلت ذلك الجمال مكرًا وخديعة وخيانة لله ولرسوله وللضمير الإنساني وللشرف والفضيلة.

فعلى بناتنا وأخواتنا أن يعلمن قيمتهن ومكانتهن التي أعطاهن الله، وأن الوحي السماوي صانهن عن الابتذال، وأنه جعلهن يقمن بخدمات لا يقوم بها غيرهن في المجتمع، فهي أعظم من خدمات الرجال، إلا أنها في صيانة وعفاف وكرم وستر.

ثم إنه لاشك أن المرأة قد تضطر إلى أن تخرج في ميدان الحياة كأن لا يكون لها زوج ولا قَيِّم يقوم بشؤونها فلها أن تعمل، ولكن إذا اضطرت إلى العمل فعليها ـ أيتها الأخوات ـ أن تخرج في ستر وعفاف، وصيانة وعدم ابتذال، وتزاول كل ما شاءت من الأعمال في ستر وعفاف.

أما خروجها في حالات لا تليق بالشرف ولا بالفضيلة ولا بالإنسانية فهو أمر يعرق منه الجبين، ويخجل منه الإنسان!! والبلاد التي انتشر فيها ذلك كمصر والشام والعراق ضاع فيها الشرف والفضيلة، وكانت أولاد الزنا تعد فيها بالملايين، فعلى المسلمات أن يرعين الله في أنفسهن، ويعلمن أن الله جعل لهن احترامًا وشرفًا وكرامة، وأن لا يضيعن كرامتهن بالابتذال والتعرض إلى الخيانات والأمور التي لا تنبغي.

وأظن أن الوقت قد قرب، والسلام عليكم جميعًا ورحمة الله وبركاته، نرجو الله لنا ولكم جميعًا العافية والتوفيق.

*****

[٤]

(أضواء على مسائل مهمة يكثر الغلط في تصورها)

وينتظم ذلك ست مسائل :

١ ـ الاعتقاد الصحيح في نصوص الصفات .

٢ ـ مفهوم «لا إله إلا الله» .

٣ ـ بيان أن الإسلام دين القوة والتقدم في جميع الميادين .

٤ ـ بيان الموقف الصحيح من الحضارة الغربية .

٥ ـ بيان أن الإسلام ينظم جميع شؤون الحياة .

٦ ـ الرابطة الإيمانية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

/ [1] والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والسلام عليكم جميعًا ورحمة الله وبركاته. . . وبعد:

فإني بهذه المناسبة أريد أن أُلقي أضواءً على بعض المسائل التي لها أهميتها في الإسلام مع أنها يتصورها كثير من ذويه بمفاهيم غير صحيحة:

من ذلك: ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ من الصفات التي تمدَّح بها خالق الكون ـ جل وعلا ـ أو أثنى بها عليه نبيه ﷺ، كصفة الاستواء ونحو ذلك، فإن كثيرًا من أهل الملة الإسلامية يتصورون ذلك بغير المفاهيم الحقيقية، والذي أريد أن أقوله: إن المفهوم الصحيح لذلك يتركز على ثلاث أُسس موضحة غاية الإيضاح في القرآن العظيم.

الأول منها: تنزيه خالق السموات والأرض التنزيه التام الكامل عن مشابهة شيء من خلقه في الذوات والصفات والأفعال، وهذا الأصل العظيم مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى/ ١١] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص/ ٤] وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل/ ٧٤] ونحو ذلك من الآيات.

الثاني من تلك الأسس: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه أو

(١) من الشريط الثامن.

وصفه به من قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم/ ٣، ٤] لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة/ ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ وذلك الإيمان بالصفات مبني على أساس تنزيه الخالق عن مماثلة خلقه في شيء من ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ فإتيانه ـ جل وعلا ـ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ له مغزى عظيم وسر كبير وتعليم واضح لا لبس في الحق معه؛ لأن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات ـ ولله المثل الأعلى ـ فكأنه يقول: لا تتنطع يا عبدي فتنفي عني صفة سمعي وبصري مدعيًا أن الحيوانات تسمع وتبصر، وأن إثبات سمعي وبصري لي والإيمان بهما يستلزم التشبيه بما يسمع ويبصر من خلقي، لا، بل آمن بسمعي وبصري وأثبتهما لي، ولكن لاحِظ في ذلك الإثبات قولي قبله مقترنًا به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

فأول الآية دليل على التنزيه الكامل من غير تعطيل، وآخرها دليل على الإيمان بالصفات من غير تشبيه ولا تمثيل، فيلزم من ذلك إيمان وتنزيه، فمن تقدم بين يدي الله وتجرأ على أن ينفي عنه وصفًا أثنى به على نفسه أو أثنى عليه به نبيه ﷺ فكأنه يجعل نفسه أعلم بالله من الله ورسوله!! سبحانك هذا بهتان عظيم!!.

ومن اعتقد أن وصفًا أثنى الله به على نفسه يشبه شيئًا من صفات

خلقه فهو أجهل خلق الله بالله، ومن أثبت لله ما أثبته لنفسه في حال كونه منزهًا ربه غاية التنزيه عن مشابهة صفات الخلق فهو مؤمن مُنَزّه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل مستضيء بنور قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى/ ١١].

الثالث من تلك الأسس: قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف؛ لأن العقول لا تحيط علمًا بمن خلقها، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه/ ١١٠] فقوله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ ﴾ فعل في سياق النفي، وهو صيغة عموم كما هو مقرر في الأصول، ومن المعلوم أن الفعل قسمان: فعل حقيقي، وفعل صناعي، أما الحقيقي: فهو الحدث المتجذر المعبر عنه في علم النحو بالمصدر، وأما الصناعي: فهو المعروف في الصناعة النحوية بفعل الأمر والماضي والمضارع، والفعل الصناعي ينحل عن مصدر وزمن عند النحويين، وعن مصدر وزمن ونسبة عند جماعة من البلاغيين، كما حرروه في مبحث الاستعارة التبعية، والمقصود أن المصدر كامن في مفهوم الفعل الصناعي إجماعًا؛ وذلك المصدر لم يتعرف بمُعَرّف فهو في معنى النكرة، فالنفي المقترن بالفعل يتسلط على المصدر الكامن في مفهومه، فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي، وهي من صيغ العموم كما هو معروف في محله.

فقوله إذًا: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه/ ١١٠] في معنى: لا إحاطة للعلم البشري بخالق الكون ـ جل وعلا ـ.

وأنا أؤكد لكم كل التوكيد أنكم إن لقيتم ربكم يوم القيامة معتقدين

في آيات الصفات هذا المعنى الصحيح المتركز على هذه الأُسس الثلاثة القرآنية لا يلومكم الله ولا يوبخكم على ذلك، فلا يقول لكم: لِمَ تنزهونني عن مشابهة خلقي؟ ولا يقول لكم: لم تؤمنون بصفاتي وتصدقونني فيما مدحت به نفسي أو أثنى به عليَّ نبيي؟ ولا يقول لكم: لِمَ لا تقولون: إن علمكم محيط بمن خلقكم؟

فهذا المفهوم الصحيح طريق سلامة محققة؛ لأنه في نور القرآن العظيم، ولو تنطع متنطع فقال: بينوا لنا كيفية للاستواء منزهة عن كيفية استواء المخلوقين لنعتقد صفة استواء منزهة عن مشابهة صفات الخلق؟

قلنا: أعرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة بتلك الصفات؟ فلابد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف متوقفة على معرفة كيفية الذات، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه/ ١١٠].

وبالجملة فالله ـ جل وعلا ـ حق، وصفاته حق، والمخلوقون حق، وصفاتهم حق، وللخالق صفات لائقة بكماله وجلاله، وللخلق صفات لائقة بحالهم، وبين صفة الخالق والمخلوق من التغاير والمنافاة مثل مابين ذات الخالق والمخلوق، ألا ترون أن الله تعالى وصف نفسه بالقدرة فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة/ ٢٨٤] ووصف بعض خلقه بالقدرة قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة/ ٣٤] ووصف نفسه بالحياة قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة/ ٢٥٥] ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر/ ٦٥]

ووصف بعض خلقه بالحياة، قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء/ ٣٠] ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم/ ١٥] ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم/ ١٩].

فلله قدرة وحياة لائقتان بكماله وجلاله، وللمخلوقين قدرة وحياة مناسبة لحالهم وفقرهم وفنائهم، وبين قدرة الخالق وحياته وقدرة المخلوق وحياته من المنافاة مثل مابين ذات الخالق والمخلوق.

ووصف نفسه بالعلم قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/ ٢٨٢] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف/ ٧] ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء/ ١٦٦] ووصف بعض خلقه بالعلم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف/ ٦٨] ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات/ ٢٨] ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الإنفطار/ ١٢] ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/ ٩] فعلم الله مناف لعلم المخلوق كما بينا.

ولو تتبعنا الآيات الواردة بنحو ذلك لجئنا منها بالمئات، ولكن القصد مطلق التمثيل.

وكذلك وصف نفسه بالاستواء على العرش في سبع آيات من كتابه، ووصف بعض خلقه بالاستواء على بعض المخلوقات كقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف/ ١٣] وقوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود/ ٤٤] ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون/ ٢٨] فاستواء الله على عرشه الذي تمدح به وأثنى به على نفسه بالغ من الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين استواء خلقه، كقدرته وعلمه وحياته؛ لأن ذاته حق، وجميع

صفاته حق، ولا يشبهه شيء من خلقه في ذاته ولا في شيء من صفاته، فالذات وجميع الصفات من باب واحد، كلها حق، وكلها منزهة عن مشابهة الخلق، والإيمان بكلها واجب.

ثم إنه من المقرر في الأصول: أن الكلام المفيد المعبر عنه في المعاني: بـ(الإسناد الخبري)، وفي النحو: بـ(الجملة الاسمية) أو (الفعلية)، وفي المنطق: بـ(القضية) بالنظر إلى مادل عليه معناه التركيبي له حالتان:

الأولى: أن يدل على معنى واحد لا يحتمل غيره بوجه، وهو المعروف بـ(النص) في أشهر اصطلاحاته.

والثانية: أن يحتمل أكثر من معنى واحد، وهذا القسم الأخير له حالتان:

الأولى: أن يكون أظهر في بعض الاحتمالات من بعض.

والثانية: أن تستوي الاحتمالات.

فإن كان أظهر في بعضها فما هو أظهر فيه يسمى بـ(الظاهر) والمصير إليه واجب إلا بدليل صارف عنه يجب الرجوع إليه، وصرفه عن ظاهره لذلك الدليل هو المعروف في اصطلاح أهل الأصول بـ(التأويل) ومنه تأويل صحيح وفاسد، ومثال الصحيح منه قوله ﷺ: «الجار أحق بسقبه»[1] فإن ظاهره المتبادر منه: ثبوت الشفعة للجار

---

(١) أخرجه البخاري في الشفعة، باب: عرض الشفعة على صاحبها قبل البيع، =

مطلقًا، وهو محتمل لأن يكون المراد في الجار خصوص الشريك المقاسم، وهذا الاحتمال المرجوح دل عليه حديث جابر: «فإذا صُرِفَت الطرق وضربت الحدود فلا شفعة»[1]. وأمثلة الفاسد منه كثيرة معروفة في الأصول، وهو ينقسم إلى ما يسمى تأويلاً بعيدًا وفاسدًا، وإلى ما يسمى لعبًا كما هو معروف في الأصول.

وإن تساوت الاحتمالات فهو المعروف بـ(المجمل) ويجب التوقف عنه حتى يوجد دليل يعين الاحتمال المقصود، فلو قالت بينةٌ: «نشهد أن زيدًا غريم عمرو بألف دينار» فكلامها هذا مجمل؛ لأن الغريم مشترَك بين طالب الدَّين والمطلوب به؛ واللفظ محتمل لكلا الاحتمالين دون ترجح. وكما لو قيل: «عدا اللصوص على عين زيد» فإنه يحتمل أن تكون عينه الباصرة عوَّرُوها، وأن تكون عينه الجارية غوَّرُوها، وأن تكون ذهبه وفضته انتهبوها.

فإذا علمت هذا التقسيم فاعلم أنا نريد أن نطبقه على المفهوم الظاهر المتبادر من آيات الصفات وأحاديثها، فنتساءل ونقول: أرأيتم إذا أثنى الله على نفسه المقدسة الكريمة بصفة، فماهو الظاهر المتبادر إلى أذهان المسلمين من مفهومها، أهو تشبيه الخالق بخلقه حتى يُلجأ

= حديث رقم (٢٢٥٨) ٤/٤٣٧، وأطرافه في (٦٩٧٧، ٦٩٧٨، ٦٩٨٠).

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب: بيع الشريك من شريكه، حديث رقم (٢٣١٣) ٤/٤٠٧، وأطرافه في: (٢٢١٤، ٢٢٥٧، ٢٤٩٥، ٢٤٩٦، ٦٩٧٦)، وأخرجه مسلم في المساقاة، باب: الشفعة، حديث رقم (١٦٠٨) ٣/١٢٢٩ بلفظ مغاير.

ذلك إلى التأويل؟ أو هو مجمل محتمل للتشبيه والتنزيه احتمالاً متساويًا؟ أو الظاهر المتبادر هو تنزيه الله عن مشابهة خلقه أكمل تنزيه وأتمه؟

الجواب طبعًا: أن كل وصف وصف الله به نفسه فظاهره المتبادر منه أنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات الخلق، ولا ينكر عاقل أن الظاهر المتبادر هو منافاة الخالق لخلقه في صفاتهم وذواتهم وأفعالهم، وكيف يشبه الخلق خالقه والخلق أثر من آثار قدرته وإرادته؟

فعلينا جميعًا أن نصدق ربنا فيما وصف به نفسه، ونصدق نبينا في ذلك، وننزه ربنا عن مشابهة الخلق على نحو ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى/ ١١].

ومن ذلك: أن كثيرًا من المتسمين بالإسلام لا يحققون المفهوم الصحيح لكلمة (لا إله إلا الله) وهي مركبة من نفي وإثبات، فمعنى نفيها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، ومعنى إثباتها: إفراده ـ جل وعلا ـ بالعبادة وحده، وهي التقرب إليه بما شرع بإخلاص على وجه المحبة والذل والخضوع.

والذي نريد أن نقوله هنا: هو أنَّا يجب علينا أن نعلم أن كل أمْرٍ أمر الله بالتقرب به إليه فهو حقه الخالص له ـ جل وعلا ـ، وإخلاصنا له في حقه ـ جل وعلا ـ هو عين المحبة والتعظيم لنبينا ﷺ، ولا يجوز صرف شيء من ذلك لغيره تعالى، وعنوان المحبة الصادقة لله ورسوله هي طاعة سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران/ ٣١] ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء/ ٨٠].

لو كان حبك صادقًا لأطعته — إن المحب لمن يحب مطيع[1]

قالت وقد سألت عن حال عاشقها — بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

فقلت: لو كان رهن الموت من ظمأ — وقلتِ: قف عن ورود الماء لم يرد[2]

ومن ذلك: ما تلفقه الدعاية المغرضة ضد دين الإسلام من أنه ينافي التقدم في ميادين الحياة، ولا يساير التطور الجديد، وهذه الدعاية ـ مع الأسف ـ راجت في الأكثرية من شباب أبناء المسلمين، وجعلتهم يحاولون التخلص من الدين بكل الوسائل ليحصلوا على التقدم الذي تتطلبه الأوضاع الراهنة للحياة البشرية، ومعلوم أن العقل الساذج إذا لم يُنَوَّر بنور المعرفة فَأَسَرَتْهُ المفاهيم الزائفة فأغوته عن قصد السبيل، فالتبست عليه النسب القائمة بين المعقولات، ألا ترون أن المدلول عليه بدلالة المطابقة من لفظة «البياض» ينافي في حقيقته ومفهومه المدلول عليه بالمطابقة من لفظ «البرودة»؟ فكل مفهوم مطابقي ثبت له أنه معنى

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (١٣/ ٣٧٩).

(٢) البيتان في ديوان يزيد (ص٨٣)، وفي قِرَى الضيف (ص١١٨)، والمستطرف (٢/ ٣٨٥)، والمدهش لابن الجوزي (ص٣١٤)، بدائع الفوائد (٣/ ٢١٦). ولفظهما هناك:

قالت لطيف خيال زارها ومضى — بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

فقال: خلفته لو مات من ظمأ — وقلت: قف عن ورود الماء لم يرد

قالت: صدقت الوفا في الحب شيمته — يابرد ذاك الذي قالت على كبدي

البياض انتفى عنه ضرورة أنه معنى البرودة كعكسه، والبياض أيضًا ينافي في حقيقته ومفهومه السواد، فكل مفهوم مطابقي ثبت له أنه معنى البياض انتفى عنه ضرورة أنه معنى السواد كعكسه، وكذلك الكلام فإنه ينافي في حقيقته ومفهومه السكوت، فكل مفهوم مطابقي ثبت له أنه معنى السواد انتفى عنه أنه معنى الحلاوة كعكسه، وكذلك الكلام فإنه ينافي في حقيقته ومفهومه السكوت، فكل مفهوم مطابقي ثبت له أنه معنى الكلام انتفى عنه أنه معنى السكوت كعكسه، كما أن الكلام ينافي في حقيقته ومفهومه القعود، فكل مفهوم ثبت له أنه معنى الكلام انتفى عنه أنه معنى القعود، ولكن منافاة البياض للسواد ليست كمنافاة البياض للبرودة، فإن السواد والبياض ضدان يستحيل اجتماعهما في نقطة بسيطة من اللون، بخلاف البياض والبرودة فلا تضاد بينهما، فيجوز أن يكون الجرم الواحد أبيض من جهة باردًا من جهة أخرى كالثلج، ومنافاة السواد للبياض ليست كمنافاة السواد للحلاوة، ولا مانع من كون الجرم الواحد أسود من جهة حلوًا من جهة أُخرى كالتمرة السوداء، بخلاف البياض فإنه لا يجامع السواد في وقت واحد من جهة واحدة لاستحالة اجتماع الضدين. ومنافاة الكلام للسكوت ليست كمنافاة الكلام للقعود، فلا مانع من أن يكون الشخص الواحد قاعدًا من جهة متكلمًا من جهة أُخرى، ولا يجوز أن يكون ساكتًا متكلمًا في وقت واحد. ومن المعلوم أن المتقابلين لا يجتمعان سواء كانا نقيضين أو ضدين أو متضايفين أو عدمًا وملكة، بخلاف الخلافين فلا مانع عقلاً من اجتماعهما كما رأيت أمثلة ذلك.

وإذا علمت هذا فاعلم أن الدعاية المغرضة ضد الإسلام خيلت

للسذج من ذويه أن النسبة بين التقدم وبين التمسك بالدين هي النسبة بين المتقابلين الذين لا يمكن اجتماعهما كالسواد والبياض، فسببت تلك الفلسفة السوفسطائية انسلاخ خلق لا يحصى من دين الإسلام حين اعتقدوا أنه ينافي التقدم منافاة المتقابلين، حرصًا منهم على التقدم المزعوم وتفضيلاً له على الدين، ولو علموا الحقيقة لعلموا أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين لها نظران من جهتين:

الأولى: النظر إليها بحكم العقل مجردًا عن نصوص الوحي.

الثانية: النظر إليها بحكم ما جاء في ذلك من الوحي السماوي.

أما بالنظر إلى الحكم العقلي مجردًا عن النقل فالنسبة بين الدين والتقدم كالنسبة بين البياض والبرودة، فكما أن الجرم الأبيض لا مانع عقلاً من أن يكون باردًا، فكذلك المتمسك بالآداب السماوية لا مانع عقلاً من أن يكون متقدمًا في جميع ميادين الحياة كما عرفه التاريخ للنبي ﷺ وأصحابه ومتابعيهم متابعة صحيحة.

وأما بالنسبة إلى ما جاء في الكتاب والسنة من وعد الله الصادق للمتمسكين بالدين كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور/ ٥٥] ونحوها من الآيات الكثيرة والأحاديث، فالنسبة بين التمسك بالدين والتقدم هي النسبة بين الملزوم ولازمه؛ لأن التمسك بالدين على الوجه الكامل الصحيح ملزوم بالتقدم الكامل، والنصر النهائي، والتقدم لازم له، ومعلوم أن النسبة بين الملزوم واللازم لا تعدو أحد أمرين: إما أن تكون المساواة، وإما أن تكون العموم والخصوص المطلق؛ لأن اللازم لا يكون أخص

من ملزومه مطلقًا ولا من وجه، ولا يكون مباينًا له كما هو معلوم، فالإنسان مثلاً ملزوم بالحيوانية والناطقية، وهما لازمان له، وأحد هذين اللازمين مساو له في الماصَدَق وهو الناطق، والثاني أعم منه وهو الحيوان، ومعلوم أن الوحي الصحيح ناقل عن حكم العقل كما هو معروف، فالنسبة بين الأمرين على الحق الذي اقتضاه الوحي المنزل هي النسبة بين الملزوم واللازم.

فانظر كيف استطاع أولئك الأعداء أن يصوروا عند هؤلاء من المتسمين باسم الإسلام نسبة الملزوم للازمه بصورة مضادة أخرى هي نسبة الضد للضد، فقطعوا بذلك صلتهم بربهم ودينهم.

ثم إنا نريد هنا أن نسلط بعض الأضواء على حقيقة الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربية بفلسفة منطقية تترك ليل المسألة نهارًا، وذلك بكشف نقابها واستبانة ما وراء بابها بدليل اصطلاحي متقدم مشهور يسميه علماء الجدل (التقسيم والترديد)، ويسميه علماء المنطق (الشَّرْطِي المنفصل)، ويسميه علماء الأصول (السبر والتقسيم)، ولما كان هذا الدليل العظيم هو السبيل الوحيد إلى إيضاح هذه المسألة إيضاحًا لا يختلف بعده اثنان أردنا أن نشير إليه إشارة، خاطفة ثم نذكر أمثلة له في القرآن العظيم، وآثارًا من آثاره التاريخية، ثم نطبقه على مسألتنا تطبيقًا واضحًا يكشف ظلامها وينير دُجاها.

اعلم أولاً أن مبنى هذا الدليل العظيم على أمرين:

أحدهما: حصر أوصاف المحل بطريق من طرق الحصر،

كالعقل، والاستقراء، وهذا هو المعبر عنه بـ(التقسيم).

والثاني: اختبارها بعد الحصر اختبارًا صحيحًا يتميز به فاسدها من صحيحها، وهو المعبر عنه بـ(السبر)؛ لأن السبر في لغة العرب هو الاختبار.

والأصوليون يستعملون هذا الدليل في استنباط علة الحكم الشرعي بطريق من طرق الحصر، ثم يبطلون الباطل منها بطريق من طرق الإبطال المعروفة عندهم، ويبقون الصالح منها للتعليل كما هو معلوم في محله.

والمنطقيون يستخدمون هذا الدليل لغرض آخر وهو استنتاج وجود النقيض من عدم نقيضه، أو عدمه من وجوده، أو استنتاج عدم الضد من وجود ضده، ونحو ذلك كما هو مفصل في أقسام قياس الشَّرْطِي المنفصل الثلاثة، كما هو معلوم في محله.

والجدليون يستعملون هذا الدليل لإفحام الخصم وإقناع القاصر عن الدليل، فيحصرون الأوصاف ويسبرونها بعد الحصر فيتبين صحيحها من فاسدها.

وسنذكر هنا أربعة أمثلة لهذا الدليل في القرآن العظيم كل واحد منها فيه إفحام لبعض المجادلين من الكفار:

الأول منها: قوله تعالى ردًا على الذين قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص/ ٥]: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور/ ٣٥] فكأنه يقول لهؤلاء المنكرين توحيده في عبادته: لا يخلو الأمر بالتقسيم

الصحيح من واحدة من ثلاث حالات:

الأولى: أن يكونوا خُلقوا من غير خالق خلقهم أصلاً.

الثانية: أن يكونوا خلَقُوا أنفسهم.

الثالثة: أن يكون لهم خالق غير أنفسهم هو ربهم ومعبودهم الواحد جل وعلا.

وإذا رجعنا إلى هذه الأقسام الثلاثة ـ التي انحصرت فيها الأوصاف بالسبر ـ وجدنا الأولين منها باطلين بطلانًا ضروريًا لا يحتاج إلى دليل، فتعين صحة القسم الثالث وهو أنهم خلقهم خالق هو ربهم ومعبودهم.

فدلالة هذا السبر والتقسيم على عبادة الله وحده قطعية، وقد عُرف في الآية القسم الصحيح من الأقسام لظهوره؛ ولأنه ذكر في آيات أخرى.

«وحذف ما يعلم جائز»[1].

المثال الثاني والثالث: هما المذكوران في سورة البقرة وسورة مريم، فإن الله ـ تعالى ـ أبطل في كل واحدة من السورتين الكريمتين المذكورتين مقالة كاذبة بهذا الدليل بعينه، وحذف في كلا الموضعين بعض الأقسام، وما حُذف في كل واحد منهما أُثبت في الآخر ليدل الثابت على المحذوف في كل الموضعين.

---

(١) من ألفية ابن مالك (ص١٨) وهو جزء من بيت، وتمامه:

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيد بعد من عندكما

أما المقالة التي كذبها الله ـ جل وعلا ـ بهذا الدليل في سورة البقرة: فهي قول اليهود: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ فقد قال تعالى ردًا عليهم: ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة/ ٨٠] فكأنه يقول لهم: لا يخلو مستندكم في دعواكم أن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة من واحدة من ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون الله أعطاكم عهدًا بذلك، فإنه لا يخلف الميعاد.

الثانية: أن تكونوا اطلعتم على الغيب فعلمتم أن الله كتب ذلك على اللوح المحفوظ أن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة.

الثالثة: أن تكونوا قلتم ذلك افتراء وكذبًا على الله.

وإذا رجعنا إلى الأقسام الثلاثة وجدنا الأولين باطلين بطلانًا ضروريًا، فتعين صحة الثالث وهو أنهم قالوا ذلك كذبًا وافتراء دون علم.

وقسم اطلاع الغيب المحذوف في آية البقرة هذه مذكور في مريم في الدليل المذكور بعينه في رده تعالى بالدليل المذكور على العاص بن وائل[1] في قوله له: ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [مريم/ ٧٧] فإن الله قال

---

(١) نزول الآية فيه أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾. حديث رقم (٤٧٣٢) ٨/ ٤٢٩، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح. حديث رقم (٢٧٩٥) ٤/ ٢١٥٣.

ردًا عليه: ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ ﴾ [مريم/ ٧٨، ٧٩] فحذف في مريم القسم الصحيح الذي هو أن الجميع كاذبون المشار إليه في البقرة بقوله: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة/ ٨٠].

فالحاصل أن التقسيم الصحيح يحصر الأوصاف في ثلاثة: هي العهد من الله بذلك، واطلاع الغيب، والكذب على الله، اثنان باطلان، وواحد صحيح بالسبر الصحيح، وقسم اطلاع الغيب محذوف في البقرة مثبت في مريم، وقسم الكذب محذوف في مريم مثبت في البقرة، فكانت المثبت دليلاً على المحذوف في كلا الموضعين.

وسنذكر الآن إن شاء الله تعالى أثرين تاريخيين من آثار هذا الدليل العظيم:

الأول منهما: أثره في العقائد، وذلك هو ما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد وغيره مما يدل على أن أول مصدر تاريخي لكبح جماح المحنة العظمى ـ أعني محنة القول بخلق القرآن ـ هو هذا الدليل العظيم؛ وذلك أن محنة القول بخلق القرآن نشأت في أيام المأمون واستمرت في شدتها على ساق وقدم أيام المعتصم والواثق حتى أزالها الله على يد المتوكل، وقد عُرف في التاريخ ما أصاب العلماء فيها من الأذى والضرب والقتل حتى اضطر كثير منهم إلى المداهنة بالقول خوفًا، وقد ضُرب فيها سيد المسلمين في زمانه الإمام أبوعبدالله أحمد بن محمد بن حنبل ـ تغمده الله برحمته وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا ـ في أيام المعتصم ضربًا مبرحًا كما هو معلوم، وقد

ذكر الخطيب في تاريخ بغداد في كلامه على ترجمة أحمد بن أبي دؤاد من طريق محمد بن الواثق ما ملخصه: قال: كان أبي إذا أراد قتل إنسان أحضرنا فجيء بشيخ مكبل بالحديد يريدون قتله ـ يعني في محنة القول بخلق القرآن ـ فقال للواثق: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: لا سلمك الله. فقال الشيخ: بئسما أدبك مؤدبك يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء/ ٨٦] والله ما حييتني بأحسن منها ولا رددتها. وقال الواثق: ائذنوا لأبي عبدالله وأصحابه ـ يعني ابن أبي دؤاد ـ وقال الواثق لابن أبي دؤاد: كلم هذا الشيخ وناظره. فقال ابن أبي دؤاد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشيخ: ما أنصفتني ـ يعني ولي السؤال ـ فقال له ابن أبي دؤاد: سل. فقال: ما تقول في القرآن؟ فقال: مخلوق، فقال الشيخ: مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها هل كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء الراشدون[1] [عالمين بها أو غير عالمين؟ فقال: غير عالمين. فقال: سبحان الله!! شيء لم يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء الراشدون علمته أنت؟ قال: فخجل!! فقال: أقلني والمسألة بحالها، قال: نعم] ثم قال له: ما تقول في القرآن؟ فقال: مخلوق. فقال الشيخ: هذا شيء علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنه أو شيء جهلوه؟ فقال ابن أبي دؤاد: هذا شيء علموه فلم يدعوا الناس

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام. انظر: تاريخ بغداد (٤/ ١٥٢).

إليه. فقال له الشيخ: هلاَّ وسعك ما وسعهم؟ فقام الواثق إلى محل خلوته واضطجع وجعل يقول: سبحان الله شيء لم يعلمه رسول الله ﷺ ولا الخلفاء الراشدون علمته أنت؟ سبحان الله شيء علموه ولم يدعوا الناس إليه ألم يسعك ما وسعهم؟ وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعد ذلك أحدًا، وأمر بفك القيود عن الشيخ وإعطائه مالاً والإذن له بالانصراف إلى أهله.

وهذه القضية وإن كانت أسانيدها لا تخلو من بعض من لا يُعرف فهي مشهورة عند العلماء متلقاة منهم بالقبول، والاحتجاج بها صحيح لاشك فيه.

ومضمون احتجاج هذا الشيخ على ابن أبي دؤاد هو هذا الدليل العظيم فكأنه يقول: لا يخلو الأمر بالتقسيم الصحيح من أحد أمرين: إما أن يكون النبي وخلفاؤه الراشدون كانوا عالمين بمقالتك هذه، وإما أن يكونوا كانوا جاهلين بها، ثم رجع بالسبر الصحيح إلى القسمين فبين أن ابن أبي دؤاد مرتكب غير الصواب على كل تقدير، فعلى أنهم كانوا عالمين بها ولم يدعوا الناس إليها فله فيهم أُسوة في عدم الدعوة إليها، ولاشك أنه يسعه ما وسعهم، وعلى أنهم كانوا غير عالمين بها فدعواه هو أنه عالم بما لم يعلموا أمرها واضح.

ومن آثار هذا الدليل التاريخية الأدبية: ما ذكروه أن عبدالله بن همام السلولي وشى به واشٍ إلى ابن زياد فدعا ابن زياد ابنَ همام السلولي وقال: ما حملك على أن تقول فيَّ كيت وكيت؟ فقال: أصلح الله الأمير والله ما قلت شيئًا من ذلك!! فأحضر ابن زياد الواشي وقال: هذا أخبرني أنك قلته. فسكت ابن همام هنيهة ثم قال مخاطبًا للواشي:

وأنت امرؤ إما ائتمنتك خاليًا فخنت وإما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

فقال ابن زياد: صدقت، وطرد الواشي، ولم يصدر منه سوء للسلولي[1].

والبيتان مضمنان هذا الدليل المذكور، فكأنه يقول: لا تخلو بالتقسيم الصحيح من أحد أمرين: إما يكون ائتمنك على سر فأفشيته، وإما أن تكون قلت ذلك عليه كذبًا وبهتانًا، ورجع بالسبر الصحيح إلى القسمين فوجد الواشي مرتكبًا ما لا ينبغي على كل تقدير؛ لأنه إما خائن لأمانته أو كاذب ذو بهتان.

فإذا عرفت هذا الدليل ورأيت بعض أمثلته في القرآن وبعض آثاره التاريخية، فاعلم أنا نريد الآن أن نوضح به الموقف الطبيعي للإسلام من الحضارة الغربية: اعلم أولاً أن الحضارة الغربية قد دل الاستقراء التام القطعي الصحيح على أن منها ما هو نافع غاية النفع لا غنى عنه للبشر في ميادين الحياة في حالاتها الراهنة وتطوراتها المتتابعة، وذلك ما خدمت به الإنسان من حيث إنه جسد، فقد خدمت الإنسان من ناحية عنصره الجسدي خدمات هائلة ما كانت تدخل في تصور البشر، وتقدمها المادي ـ في جميع النواحي والميادين ـ والتنظيمي أظهر من أن يحتاج إلى التنويه عنه، ومنها ماهو ضار غاية الضرر وهو عام بجميع اتجاهاتها الروحية، وهي غنية من جهة الناحية المادية مفلسة من

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٤/١٢٧).

الناحية الروحية، وطغيان المادة على الروح يهدد البشر بخطر داهم، ومن المعلوم أن الإنسان مركب من عنصرين مختلفين في الحقيقة والمفهوم والصفات النفسية، وباختلاف جوهريهما تختلف متطلباتهما، فللجسم متطلبات وللروح متطلبات، ولايسد أحدها مكان الآخر، فالحضارة استطاعت تحصيل متطلبات الجسم، وعجزت عن تحصيل متطلبات الروح، والعالم إن لم تدبره الروح المهذبة المرباة تربية سماوية على ضوء الوحي الصادر من خالق السموات والأرض كان في خطر وقلق دائمين؛ لأن الروح البهيمية من طبيعتها الافتراس والابتزاز والظلم مهما قدرت، وآثار عدم التربية الروحية الصحيحة ظاهرة في أقطار الدنيا من الكوارث والمصائب وأنواع الظلم الفادح الواقع على كل دولة ضعيفة وكل شعب ضعيف كما لا يخفى.

والذي نريد أن نقوله هنا: هو أن التقسيم الصحيح يحصر موقف الإسلام من الحضارة الحالية في أربعة أقسام لا خامس لها ألبتة:

الأول: أخذها كلها ضارها ونافعها.

الثاني: تركها كلها نافعها وضارها.

الثالث: أخذ ضارها وترك نافعها.

الرابع: أخذ نافعها وترك ضارها.

فنرجع إلى هذه الأقسام الأربعة بالسبر الصحيح فنجد ثلاثة أقسام منها باطلة وواحدًا صحيحًا، أما الثلاثة الباطلة:

فالأول منها: هو أخذها كلها؛ لأن مافيها من الكفر والإلحاد

والانحطاط الخلقي والتمرد على خالق السموات والأرض أوضح من أن ننوه عنه، ولا يقول بأخذه إلا مطموس البصيرة طمسًا كليًا.

والثاني من الأقسام الباطلة: تركها كلها؛ لأن ما فيها من التقدم المادي والتنظيمي لايصح التفريط فيه؛ لأن ذلك يؤدي إلى العجز الدائم والتواكل والتكاسل، ويخالف الأمر السماوي في قوله تعالي: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال/ ٦٠].

والثالث من الأقسام الباطلة: أخذ ضارها وترك نافعها، وهذا لا يفعله من يصدق عليه اسم العاقل.

الرابع وهو القسم الصحيح: أخذ النافع منها وترك الضار، وذلك بالسعي البالغ في تحصيل ما اشتملت عليه من الإنتاجات المادية والتنظيمية، وقضية تحصيل ذلك ممكنة مع الجد لا مستحيلة، مع التباعد الكامل عن ما جنته من الكفر والإلحاد والتمرد على نظام السماء الذي وضعه خالق الكون ـ جل وعلا ـ على لسان سيد البشر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وكذلك كان النبي ﷺ يفعل، فإنه لما حاصره الأحزاب في غزوة الخندق وقال له سلمان: «كنا إذا خفنا خندقنا»[١] انتفع في دنياه بتلك الخطة العسكرية ـ التي هي حفر الخندق ـ ولم يمنعه من ذلك أن الأذهان التي ابتكرتها أذهان كفار مجوس يعبدون النار. وقد هم ﷺ أن يمنع وطء النساء المراضع؛ لأن العرب كانوا يظنون أن وطء المرضع يضر بولدها ويضعف عظمه، وفي

---

(١) تقدم في المحاضرة الثانية.

ذلك يقول شاعرهم[1]:

فوارس لم يغالوا في رضاع　　فتنبو في أكفهم السيوف

فأخبرته فارس والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم، فأخذ ﷺ تلك الخطة الطبية من الكفار، ولم يمنعه من الانتفاع الدنيوي بها أنهم كفار. وقد انتفع ﷺ في سفر الهجرة بخبرة عبدالله بن الأريقط الدؤلي حين دله على الطريق حتى وصل المدينة بسلام[2]، ولم يمنعه من الانتفاع بخبرته الدنيوية كونه كافرًا، وفي المثل: «اجتن الثمار وألقِ الخشبة في النار».

ومن المؤسف أن أكثر المثقفين في الأقطار الإسلامية في جميع أنحاء الدنيا يعكسون القضية، فيأخذون من حضارة الغرب كل ما فيها من إفلاس روحي، وانحطاط خلقي، وإلحاد كفري، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه خالق الكون، في الوقت الذي لم يحصلوا فيه على شيء من إنتاجاتها المادية والتنظيمية، فخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا　　وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل[3]

فدين الإسلام دين التقدم في جميع ميادين الحياة، ودين تهذيب

---

(١) تقدم في المحاضرة الثانية.
(٢) كما في البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم (١٣٠٥) ٧/ ٢٣٠.
(٣) تقدم في المحاضرة الثانية.

الروح التقدمية وتصفيتها من الأمراض المخلة بمعنى إنسانيتها على ضوء تعليم خالق الكون ـ جل وعلا ـ.

ومن أراد بعض الأمثلة الرائعة على جمع الإسلام بين التقدم في الميادين والمحافظة على الآداب الروحية السماوية فليقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾ الآيتين [النساء/ ١٠٢] فإنك تراه ينظم الخطة العسكرية أحسن تنظيم وأدقه في الوقت الذي يحافظ فيه على ذلك الأدب الروحي السماوي في وقت التحام الكفاح المسلح والرؤوس تنزل عن الأعناق، ألا وهو الصلاة جماعة، في ذلك الوقت الضنك.

واقرأ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال/ ٤٥] فتراه يأمر بذكر الله وتقوية الصلة به ـ جل وعلا ـ عند التقاء الصفين في ميدان القتال، ومن ذلك ما يعتقده الكثيرون من أن الإيمان ليس بسلاح يُقاوم كل سلاح مهما بلغ من التطور.

فنريد هنا أن نلقي الضوء على أن الإيمان هو أعظم سلاح كما شهد بذلك التاريخ القرآني، ألا ترون أن النبي ﷺ لما حاصره هو وأصحابه الأحزاب ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم المذكور في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب/ ١٠، ١١] وجميع أهل الأرض في ذلك

الوقت يقاطعون النبي وأصحابه سياسة واقتصادًا، وفي الوقت نفسه غدرت يهود قريظة فلم يبق للمسلمين في ذلك الوقت من أهل الأرض صديق ولا معين، ألا ترون أنهم لم يقاوموا هذا الحصار العسكري التاريخي العظيم في هذا الموقف الحرج إلا بسلاح الإيمان الصادق وصدق الالتجاء إلى الله ـ جل وعلا ـ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب/ ٢٢] وقد كان من نتائج هذا الإيمان العظيم والتسليم الخالص لله ـ جل وعلا ـ ما قصه الله علينا في كتابه في قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب/ ٢٥ ـ ٢٧] وهذا الذي نصرهم الله به ماكان بحسبانهم ولا ظنهم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ [الأحزاب/ ٩].

ولما علم الله ـ جل وعلا ـ من أهل بيعة الرضوان ذلك الإيمان والإخلاص الذي نوّه عنه بالاسم المبهم الذي هو اسم الموصول في قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح/ ١٨] أي من الإيمان والإخلاص، كان من نتائج ذلك الإيمان ما ذكره في قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح/ ٢١] فصرح بأن إمكانياتهم العددية والعُددية لا تقدرهم عليها، فأقدرهم الله عليها لإخلاصهم

وإيمانهم.

وفي الختام نقول: إن دين الإسلام صالح لتنظيم أحوال البشرية في جميع أطوارها واتجاهاتها، ومعلوم أن المصالح التي يدور حولها التشريع ثلاثة: الأولى: درء المفاسد، والثانية: جلب المصالح، والثالثة: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات.

ودين الإسلام متضمن من المحافظة على تلك المصالح مالا يخفى إلا على جاهل، ومعلوم أن المفاسد التي يُحَاوَل درؤها عن البشر واردة على ستة أشياء على حفظها مدار العدالة والإنصاف في هذه الحياة الدنيا:

الأول منها: الدين، فظلم الإنسان بإضاعة دينه وإفساد عقيدته هو أعظم أنواع الظلم.

والثاني: النفس.

والثالث: العقل.

والرابع: النسب.

والخامس: العرض.

والسادس: المال.

فما في الدين الإسلامي من الأمر بإدخال الناس في الدين بكل الوسائل وقتل المرتدين عنه والزنادقة المضللين ونحو ذلك كله محافظة على دين الإسلام.

ومحافظته على الأنفس معروفة، ومن أجلها شرع القصاص ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة/ ١٧٩].

ومحافظته على العقول معروفة، ومن أجلها حُرم شرب الخمر، وأُوجب الحد الرادع في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ . . .﴾ الآية [المائدة/ ٩٠] «كل مسكر حرام»[1].

---

(١) هذه الجملة رواها عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة رضي الله عنهم منهم:
١ ـ عبدالله بن عمر رضي الله عنه: أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، برقم (٢٠٠٣) ٣/ ١٥٨٧.
٢ ـ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر، برقم (٢٤٢) ١/ ٣٥٤، وأطرافه في (٥٥٨٥، ٥٥٨٦)، ومسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام. برقم (٢٠٠١) ٣/ ١٥٨٥ بلفظ (كل شراب أسكر فهو حرام).
٣ ـ جابر بن عبدالله رضي الله عنه: أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، برقم (٢٠٠٢) ٣/ ١٥٨٧.
٤ ـ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، برقم (٤٣٤٣، ٤٣٤٤، ٤٣٤٥) ٨/ ٦٢، وأطرافه في (٦١٢٤، ٧١٧٢)، وأخرجه مسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، برقم (١٧٣٣) ٣/ ١٥٨٦.
٥ ـ بريدة رضي الله عنه أخرجه مسلم في الأشربة، باب النهي عن الانتباذ في المزفت. حديث رقم (٩٧٧) ٣/ ١٥٨٥.

وفي الباب ـ في غير الصحيحين ـ عن ابن مسعود، وأشج عبدالقيس، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وأبي وهب الجيشاني، ووائل بن حُجر، وابن عباس، وأنس، وعبدالله بن عمرو، وقيس بن سعد بن عبادة، وبريدة، وفيروز بن الديلمي، وأبي سعيد الخدري، وعلي، وعبدالله بن المغفل، =

ومحافظته على الأنساب معروفة ولأجلها شرع تحريم الزنا لئلا تختلط أنساب المجتمع، وأوجب الحد فيه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء/ ٣٢] ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾ [النور/ ٢] ومن أجل المحافظة على النسب أوجب العدة على النساء عند المفارقة لئلا يختلط ماء رجل بماء رجل آخر في رحم امرأة ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ ﴾ [البقرة/ ٢٢٨] ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ ﴾ الآية [البقرة/ ٢٣٤] ومن أجل ذلك منع سقي زرع الرجل بماء غيره، فمنع نكاح الحامل حتى تضع حملها ﴿ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴾ [الطلاق/ ٤].

ومحافظته على الأعراض معروفة، ومن أجلها شرع حد القذف مع رد شهادة القاذف والحكم بتفسيقه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ [النور/ ٤، ٥].

ومحافظته على المال معروف، ومن أجلها أوجب حد السرقة ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ الآية [المائدة/ ٣٨] فتلك اليد التي خلقها الله وجعلها ببديع صنعه في غاية الاستعداد إلى مزاولة الأعمال النافعة لتكون أداة فعَّالة في نفع الدنيا والآخرة لما مدت أصابعها الخائنة الخسيسة إلى هذه الرذيلة التي هي في غاية الانحطاط والخسة أمر الله بإزالتها كعملية تطهيرية كإزالة عضو فاسد لتصح بإزالته

= وقرة بن إياس، وميمونة رضي الله عنهم أجمعين.

بقية البدن؛ ولذلك إذا قطعت يد السارق طهر جميع بدنه من النجاسة المعنوية الروحية التي لطخته بها تلك اليد الخائنة، وقد ثبت في الصحيحين[1] من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن الحدود الشرعية كفارات ومطهرات من تلك الرذائل كما هو معروف.

ومحافظة دين الإسلام على جلب المصالح معروفة، ألا ترون أن أطول آية في المصحف الشريف هي آية الدَّين؟ فانظروا كيف علَّم الله خلقه فيها كتابة الوثائق وإشهاد البينات؛ لئلا يضيع كبير ولا صغير من أموالهم، وفتح لهم الأبواب، ورسم لهم الخطط الحكيمة لاستجلاب ماينفعهم من جميع النواحي، وأمرهم بمكارم الأخلاق وحسن المعاملات، وبين لهم أصول الاقتصاد.

ومن المعلوم عند جميع العقلاء أن مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصلين:

الأول: حسن النظر في طريق اكتساب المال.

والثاني: حسن النظر في صرف المال في مصارفه.

والدين يوضح ذلك كله على ضوء تنظيم خالق البشر لوجوه الاكتساب ووجوه الصرف في حدود معروفة معينة، فيمنع الاكتساب المنطوي على مالا ينبغي، كقوله: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة/ ٢٧٥] ومنع

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود، باب: الحدود كفارة. حديث رقم: (٦٧٨٤)، ١٢/ ٨٤، ومسلم في الحدود، باب: الحدود كفارة لأهلها. حديث رقم (١٧٠٩) ٣/ ١٣٣٣.

الصرف فيما لا ينبغي، كقوله: ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ [الأنفال/ ٣٦].

والقصد الإشارة إلى رؤوس أقلام من المسائل؛ لأن المقام لا يسع كمال البحث، وتبيين أن دين الإسلام هو الرابطة العظمى التي تجمع المفترق، وتؤلف المختلف، وتلم الشعث، فتجعل بعضنا أولياء بعض، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وتجعل الله ولينا، والصالحين منا أولياء الله، وكذلك الرسول ﷺ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [المائدة/ ٥٥] ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة/ ٢٥٧] ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس/ ٦٢] وتجعل الملائكة أولياءنا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ . . . إلى قوله ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية [فصلت/ ٣١].

ولأجل هذه الولاية الإيمانية بيننا وبينهم دعوا لنا ذلك الدعاء القرآني العظيم ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ [غافر/ ٧] إلى آخر الدعاء.

ويبين لنا أن جميع الروابط تتلاشى أمام هذه الرابطة السماوية ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة/ ٢٢] إذ لا رابطة نسبية أعظم من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، وقد رأيت تلاشيها أمام رابطة الإيمان، فالدين الإسلامي مع ذلك لا ينكر أصل الروابط، ولا يريد إذابة الأسرة النسبية وأواصر القرابات، فقد

خصص بالميراث القرباء مراعاة لتلك الرابطة، وأوجب صلات الأرحام وشدد في قطعها مراعاة لتلك الرابطة، ولا ننكر أن الله ـ جل وعلا ـ قد نفع بعض رسله الكرام بعصبيات نسبية لا تَمُتُّ إلى الدين بصلة، وجعل لذلك آثارًا حسنة على الإسلام وأهله، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ ﴾ [الضحى/ ٦] يعني آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب وذلك بعصبة نسبية لا تمت إلى الدين بصلة، وقد بين الله لنبيه أن ذلك منَّة منه عليه، ومن آثار تلك القرابة النسبية قول أبي طالب[1]:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فقد عرف النبي ﷺ هذه القرابة النسبية لبني المطلب بن عبد مناف، فإنهم ناصروا الهاشميين مناصرة عصبية لا دينية كما هو معلوم؛ ولذلك لما قسم ﷺ خمس غنيمة خيبر جعل نصيب ذي القربى من الخمس لبني هاشم وبني المطلب، ومنع منه إخوتهم الآخرين من بني عبد شمس وبني نوفل؛ لأن أولاد عبد مناف بن قصي أربعة: هاشم، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل، ولما جاء عثمان بن عفان وجبير بن مطعم يكلمان النبي ﷺ في إعطائه بني المطلب من الخمس دون بني عبد شمس وبني نوفل بين لهم أن المطلبيين لم يفترقوا مع الهاشميين في جاهلية ولا إسلام[2]، ومعلوم أن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وجبير بن مطعم بن عدي بن

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٤٢).

(٢) كما في البخاري: فرض الخمس، باب من الدليل على أن الخمس للإمام، حديث رقم (٣١٤٠) ٦/ ٢٤٤، وأطرافه في (٣٥٠٢، ٤٢٢٩).

نوفل بن عبد مناف. وقد قال أبو طالب في لاميته المشهورة[1]:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً　　عقوبة شر عاجل غير آجل

ميزان قسط لا يخيس شعيرةً　　له شاهد من نفسه غير عائل

وقد نفع الله بالرابطة النسبية نبيه شعيبًا ونبيه صالحًا، قال تعالى عن قوم شعيب: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ [هود/ ٩١] وقال في قوم صالح: ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل/ ٤٩] ولما كان لوط ليس له في قومه عصبة ظهر فيه أثر ذلك حتى قال ذلك الكلام المحزن: ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود/ ٨٠].

فالإسلام هو رابطتنا الحقة التي تجعلنا كالجسد الواحد، ولا ينافي ذلك أن لكل منا بعض الروابط الخاصة في حدود الدين الحنيف، فإذابة معنى الأسرة إذابة كلية أقرب إلى الشيوعية منه إلى الإسلام، أما رابطة الإسلام فهي التي يُنادى بها، ولا يجوز أن يُنادى بغيرها محاولة للقضاء على الروابط السماوية التي هي الرابطة حقًّا، وكل تضامن يخالفها فهو باطل، والله تعالى يقول: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات/ ١٣] أي: لئلا يتعصب كل شخص.

---

(١) وهي في البداية والنهاية (٣/ ٥٣ ـ ٥٧)، الأضواء (٢/ ٣٦٣).

[٥]

الرابطة الإيمانية

/ [1] السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

أما بعد: فإن رابطة الإسلام التي جمعتنا بكم في هذا السفر البعيد هي أعظم رابطة، ونحن دائمًا في المناسبات نبين أنها أقوى من رابطة النسب، والدليل على أن رابطة الإسلام أقوى من رابطة النسب أن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة/ ٢٢] لأن أقرب العصبات الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، كما أننا نبين دائمًا بالمناسبات أن رابطة الإسلام لقوتها ربطت بين السماء والأرض، وربطت بين الخلق والخالق؛ ولذلك كان الله ولي المؤمنين من أجل رابطة الإيمان، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة/ ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية [المائدة/ ٥٥] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد/ ١١] هذه الآيات تبين أن الله هو ولي المؤمنين؛ لقوة رابطة الإيمان، كما بين أن المؤمنين أيضًا المتقين أولياء الله، قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس/ ٦٢] ثم بين أن سبب ولايتهم لله هو الإيمان والتقوى حيث قال بعد قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس/ ٦٢] مبينًا أولياء الله، قال الله في ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس/ ٦٣].

ولأجل هذه الرابطة العظمى رابطة الإسلام كان النبي ﷺ ولي

---

(١) من الشريط السادس.

المؤمنين، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة/ ٥٥]. ويقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب/ ٦].

كذلك هذه الرابطة جعلت الملائكة أولياء المؤمنين، قال الله تعالى في ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [فصلت/ ٣٠، ٣١] ولأجل هذه الرابطة القوية ـ رابطة الإيمان ـ التي ربطت بين بني آدم والملائكة فوق السموات من شدة ربطها عطفت قلوب الملائكة من فوق سبع سماوات على بني آدم في الأرض، فدعوا لهم بذلك الدعاء العظيم المذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر/ ٧] فوصف الملائكة بالإيمان ثم قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فوصف الآدميين بالإيمان فعُرف من ذلك أن الرابطة بين الآدميين والملائكة: الإيمان، كان من نتائج ذلك الرابط ـ وهو الإيمان ـ أن دعوا للآدميين كما ذكره الله عنهم في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ . . .﴾ إلى آخر الآيات [غافر/ ٧، ٨].

هذه الرابطة عطفت علينا قلوب الملائكة من فوق سبع سماوات مع اختلافنا معهم في الأصل والعنصر، فدل ذلك على أنها تربط بيننا ونحن أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ربطًا وثيقًا؛ ولأجل ذلك بين

النبي ﷺ أن جميع المسلمين في أقطار الأرض من مشارقها ومغاربها وجنوبها وشمالها كأنهم جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فعلينا أن نتساعد ونتعاون في الخير، وأن نحافظ على أعمالنا حتى تكون صالحة ترضي الله، وقد بين لنا الله في كتابه أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فالعمل صالح يرضي الله، وإذا اختل واحد منها فالعمل غير صالح:

الأول من هذه الأمور الثلاثة: هو أن يكون ذلك العمل مطابقًا لما جاء به سيدنا محمد ﷺ؛ لأن الله يقول في هذا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر/ ٧] ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء/ ٨٠] ويقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران/ ٣١].

الثاني من تلك الأمور الثلاثة: هو كون العمل فيما بين الإنسان وبين ربه في نيته التي لا يعلمها إلا الله خالصًا لوجه الله، لا لقصد غرض دنيوي، ولا مال ولا جاه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة/ ٥] ويقول: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ [الزمر/ ١٤].

الأمر الثالث: أن يكون العمل مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن العمل كالسقف، والعقيدة كالأساس؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء/ ١٢٤] فقيد العمل بالإيمان، ثم بين أن الأعمال الصالحة من غير المؤمنين باطلة، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾

[الفرقان/ ٢٣] وقال تعالى في أعمال الكفار في آية: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيَاحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم/ ١٨] وقال في آية أخرى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ [النور/ ٣٩].

فتبين مما قلنا أن على المؤمن أن يتحافظ على هذه الأمور الثلاثة، فيكون عمله مطابقًا للشرع، مخلصًا فيه لله، ويكون على أساس العقيدة الصحيحة، وخير ما تؤخذ منه العقيدة الصحيحة: القرآن العظيم، كما بينه الشيخ عثمان فودي في أول كتابه إحياء السنة، فعلينا أن نثبت ما أثبته القرآن، وأن ننفي ما نفاه القرآن، وأن نسكت عما سكت عنه القرآن لنهتدي دائمًا بكتاب الله.

ومما دلنا القرآن عليه: أنا لا نأمن مكر الله؛ لأن الله يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف/ ٩٩] وأن نخاف من الله، وإذا كان أحدنا عنده أسلاف صالحون لا نتكل على ذلك؛ لأن الإنسان بحسب عمله، والله يقول: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء/ ١٢٣، ١٢٤].

وسنضرب أمثالاً في القرآن؛ لأن الإنسان لا يتكل إلا على الله ثم على عمله: أفضل البشر على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ، وأبو طالب عمه الذي رباه لما حضرته الوفاة كما ثبت في صحيح مسلم والبخاري ـ وذلك أصح الصحيح ـ جاءه النبي ﷺ فقال: يا عم قل لي كلمة أشهد لك بها عند الله، فأنزل الله عليه جبريل بهذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا

تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] [القصص/ ٥٦](. . .)[2].

*****

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ. . . ﴾، حديث رقم (٤٧٧٢)، (٨/ ٥٠٦)، وأطرافه في (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٦٦٨١)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت مالم يشرع في النزع. حديث رقم (٢٤)، (١/ ٥٤).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد تقدم كلام الشيخ رحمه الله على هذا الموضوع ضمن المحاضرة رقم (٤)، وسيأتي أيضًا في المحاضرة رقم (٦).

[٦]

(الرابطة الإيمانية)

/ [1]السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

نريد في هذا الاجتماع المبارك أن نبيّن أمام إخواننا العلماء الأفاضل جُملاً من محاسن دين الإسلام.

أولاً: نبيّن أن رابطة الإسلام هي أعظم جميع الروابط، لأنّ الروابط ما عداها إنَّما هي حول أمور دنيويّة، كرابطة النسب، ورابطة الصداقات، وروابط التجارات، وغير ذلك من الروابط الأرضية، أمّا رابطة الإسلام وحدها فهي في الله الذي خلق السموات والأرض، وماكان في خالق السموات والأرض فلا شكّ أنه أعظمُ مما سواه.

ونحن دائمًا ـ في المناسبات ـ نبيّن أنّ رابطة الإسلام ـ لشدّة قوّتها ـ ربطت بين السماء والأرض، وربطت بين الخالق والمخلوق، ومن أجلها كان الله وليّ المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة/ ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد/ ١١]، وولاية الله للمؤمنين التي ذكرناها الآن في القرآن إنّما هي بقوّة رابطة دين الإسلام وهذه الرابطة جعلت المؤمنين المتقين أيضًا أولياء الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس/ ٦٢] ثمّ بين أولياء الله من هم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس/ ٦٣] فكون المؤمنين المتقين أولياء الله، وكون الله وليّ المؤمنين، كلّ هذا من رابطة دين الإسلام؛ ولأجل هذه الرابطة كان النبي ﷺ وليّ المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ

(١) من الشريط العاشر.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب/ ٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة/ ٥٥] هذه الولاية بين المسلمين وسيّد الخلق محمد ﷺ التي بيّناها الآن في القرآن إنّما هي بقوة رابطة الإسلام، وهذه الرابطة جعلت المؤمنين في أقطار الدنيا بعضهم أولياء بعض، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة/ ٧١].

ولقوة هذه الرابطة ربطت بين بني آدم في الأرض وبين الملائكة الكرام من فوق سبع سموات، كما نصّ الله على ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر/ ٧] فوصف حملة العرش فوق سبع سماوات بأنهم يؤمنون بالله، ثم بين من نتائج ذلك ما نصّ عليه في قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر/ ٧]، فوصف بني آدم بالإيمان أيضًا، فعلم من الآية أن الرابطة بين الملائكة وبين الآدميين هي الإيمان، كان من نتائج هذه الرابطة أن دعوا ـ الملائكة ـ للآدميّين هذا الدعاء العظيم الذي ذكره الله في القرآن العظيم في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ إلى آخر الآيات [غافر/ ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت/ ٣٠، ٣١] فقول الملائكة للآدميين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ تلك الولاية فيه برابطة دين الإسلام.

فإذا تبين من هذه الآيات القرآنية أن رابطة الإسلام لشدّة قوّتها ربطت بين الخلق والخالق، وبين الأمّة والرسول العظيم، وبين

الآدميّين والملائكة؛ فإن ذلك يدل على أنّها تربط بيننا ـ معاشر المسلمين ـ لأنّنا أولاد رجل واحد وامرأة واحدة، كما يبيّن لنا ربّنا في القرآن العظيم في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات/ ١٣].

فهذه الرابطة التي ربطت بين الملائكة والآدميين مع اختلافهم في العنصر، واختلافهم في المكان، واختلافهم في الاتجاهات والميول، لاشكّ أنّها تربط أقوى الربط بين المسلمين الذين هم جنس واحد من رجل واحد وامرأة واحدة، فعلينا ألاّ نضيّع هذا الربط السماويّ العظيم الذي جعله الله بيننا بسبب تشريع ربّ العالمين، فيجب علينا أن نتعاون ونتعارف ونتساعد على توجيه المسلمين، ورفع مستوى دين الإسلام، لتكون كلمة الله هي العليا.

وممّا يدعونا إليه دين الإسلام: أن نترك الخلافات والنزاعات، ونكون يدًا واحدة على الخير؛ لأنّ الاختلاف والمنازعات يؤدي للفشل وضياع القوّة، والله يقول في كتابه العظيم: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾ [الأنفال/ ٤٦]، ويقول تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران/ ١٠٣].

وقد بيّن القرآن العظيم في سورة الحشر أن الاختلاف والنزاعات سببها ضعف العقل، ذلك في قوله تعالى في قوم كانوا مختلفين: ﴿تحسبُهُم جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر/ ١٤]، ثم بيّن العلّة فكأن قائلاً قال: ما العلةُ في كون قلوبهم شتى؟ قال الله مبيّنًا تلك العلة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر/ ١٤] فآية سورة الحشر هذه التي قال

الله فيها: ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴿١٤﴾﴾ هي دليل على أن منشأ الاختلافات إنّما هو ضعف في العقل؛ لأنّ العاقل يعلم أنّ الاتفاق خير من الاختلاف؛ فإذا اتفقت أنت وأخوك كانت جهوده معك، وإذا اختلفتما كانت جهود كل منكما ضدّ الآخر، وضعف العقل إنّما يداوى بدواء القرآن؛ لأن القرآن نور، يقول الله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن/ ٨]، ويقول: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى/ ٥٢]، هذا النور القرآني هو الذي يكشف ظلام الجهل، ويبيّن الحقّ من الباطل، والنّافع من الضار، والحسن من القبيح، والله يقول في كتابه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام/ ١٢٢].

فهذه الآية بيّنت أن دين الإسلام حياة بعد الموت، ونور بعد الظّلام، فعلينا أن نستضيء بهذا النّور ـ نور القرآن العظيم ـ ونرى الحق في باطنه حقًا، والباطل باطلاً، ونميّز بين ما يضر وما ينفع، والسبب الأساسي لذلك أن نتحد ونكون إخوانًا متعاونين، لأنّ الخلاف هو سبب كل شرّ، وكلّ تأخّر، وقد يكون العقلاء بينهم اختلاف وجهات نظر، ولكنّ هذا الخلاف لا يؤثر؛ لأنّ الأصول العظام لا خلاف فيها؛ دين واحد، وربٌّ واحد، ونبيّ واحد، وكتابٌ واحد، وقبلةٌ واحدة، كلّنا نستقبل قبلةً واحدة، ونحجّ بيتًا واحدًا، ونتلوا قرآنًا واحدًا، ونؤمن بربّ واحد، ونصدق بالنبي ﷺ، هو رسولنا، وإنّا نصدّق بجميع الرّسل ولا سيّما رسولنا محمد ﷺ، فالخلاف في المسائل البسيطة لا ينبغي أن يكون سببًا للتفكك، وعدم المساعدة، والصحابة ـ رضوان

الله عليهم ـ كانوا يختلفون في بعض المسائل، ولا يؤثر هذا على الاتحاد والجماعة، والأئمة الأربعة رضي الله عنهم مالك، والشافعي، وأبوحنيفة، وأحمد يختلفون في بعض المسائل، وذلك لا يؤثر على الألفة والاتحاد. لأن اختلاف وجهات النظر في الفروع لا يؤثر، ولا يتخذه سببًا للافتراق إلاّ الجهلة، أمّا أهل العلم فهذا لا يؤثر عندهم، ولا يفكّك الأخوة الإسلامية السامية.

ونحن دائمًا نضرب المثل لهذا بصورة هذه الصّورة: أنّه ثبت في صحيح البخاري ـ وهو أصحّ كتاب بعد القرآن ـ أن النبي ﷺ لمّا أراد أن يغزو يهود بني قريظة قال: «من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»[1] فأصحاب النبي ﷺ فهموا هذا النص، ولكن اختلفت وجهات نظرهم في فهمه، فقومٌ قالوا: مراد النبي: أننا نسرع إلى خيبر، وليس مراده تأخير الصلاة، فصلوا وأسرعوا إلى النبي ﷺ، وقومٌ آخرون من الصحابة وقفوا مع ظاهر اللفظ ولم يصلّوا العصر إلا بعد العشاء في بني قريظة، فاجتمع الجميع عند النبي ﷺ في الليل بعد العشاء وقد اختلفوا قوم صلّوا في الطريق، وقوم لم يصلوا إلا بعد العشاء، وهذا خلاف، والنبي ﷺ وفّق الجميع وصوّبهم، ولم ينتقد على هذا ولا على هذا، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يقرّر على

---

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبًا وإيماءً، حديث رقم (٩٤٦) ٢/ ٤٣٦. وطرفه في (٤١١٩)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين. حديث رقم (١٧٧٠) ٣/ ١٣٩١.

شيء باطل أبدًا، فدلّ على أنّ كلّهم فعل حقًا غير باطل، وهم مختلفون.

فهذه صورة نبوية تبين أن الخلاف في الفروع والاتجاهات في فهم النصوص لا أثر لها، فالذي يتخذها وسيلة للتفكك والخلاف هو يجني على المجتمع، ويجني على الدّين، فعلينا جميعًا أن نتفطن لهذا، وأن لا نجعل النزاعات والخلافات واختلاف وجهات النظر سببًا لتفككنا؛ لأنّا إذا تفرّقنا لم تكن لنا قوة، هذا مما يرشد إليه دين الإسلام، وهو يرشد إلى جميع الخير في جميع الميادين، وإن شاء الله في الاجتماع القادم سنبين زيادات كثيرة، وأمثلة كثيرة ممّا يدعو إليه دين الإسلام من الخير والمحاسن. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

*****

القسم الثاني

(السؤالات)

السؤال الأوّل[1]: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، ما قول أئمة الفروع من المالكية في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[2][المائدة/ ٣].

الجواب: هذا الخلاف معلوم في هذه الآية، وحاصل هذا المقام أن مثل هذا الذي سأل عنه فضيلة الشيخ ذُكر في أربع آيات من كتاب الله، اثنتان منهما: وهي الأولى والأخيرة في كل واحدة منهما زيادة، والوسطيان منهما لا زيادة فيهما.

أول ما نزل في هذا: قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام/ ١٤٥] فحرّمت هذه الآية هذه الأشياء، وزادت التقييد بكون الدّم مسفوحًا.

ثمّ إنّ الله حرّم هذه الأشياء الأربعة في سورة النحل، وهي النازلة بعد الأنعام، فسورة النحل نزلت في مكة قبل الهجرة على التحقيق إلا الآيات الأخيرة منها: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل/ ١٢٦]، فقد نزلت في تمثيل المشركين بشهداء أحد، وهم حمزة وأصحابه، والدليل على أنّ النحل نازلة بعد الأنعام في القرآن في موضعين: أحد هذين الموضعين: قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل/

(١) السؤال الأول إلى السادس من الشريط الثاني.
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٥٠).

١١٨]، والنازل المقصوص المحال عليه من قبل نازل في سورة الأنعام بالإجماع في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام/ ١٤٦].

الموضع الثاني من الموضعين: أن الله قال في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام/ ١٤٨]، فبين أنهم سيقولون هذا القول في المستقبل، وأنهم وقت نزول الآية لم يقولوه فعلاً، ثم بين في النحل أن ذلك القول الموعود به وقع تمامًا، فتبيّن أنها بعدها، وذلك في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل/ ٣٥].

قال في النحل النازلة بعد الأنعام كما بيّنا: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [النحل/ ١١٥] ولم يزد شيئًا، ثم إنه نزل في البقرة وهي نازلة في المدينة بالإجماع: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة/ ١٧٣]، ولم يزد فيها شيئًا، ثم نزلت سورة المائدة بعد الجميع، نزل بها: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، وذُكرت أصناف من أصناف الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردّية، وزيد في هذه الاستثناء، فزيد في الآية الأولى: التّقيد بالمسفوحية، وزيد في الآية الأخيرة: الاستثناء بالتذكية، وكل منهما يحتاج إلى كلام.

والآن نتكلم على محل السؤال: هذا الاستثناء أصله معروف عند علماء التفسير أن فيه وجهين:

أحدهما: أنه استثناء منقطع، وهو قول القليل، منهم مالك بن

أنس، وقول الجمهور: أنه استثناء متصل، والحكم يختلف باختلاف التفسيرين. أما الجمهور الذين قالوا: إنه استثناء متصل فإنهم قالوا: حرمت عليكم الموقوذة إلا ما أدركتم فيه ذكاةً ما وذكيتموه، وحرّم عليكم ما أكل السّبع إلا ماذكيتم ولو أدركتم فيه أدنى شيء يصدق عليه اسم الحياة.

ومالك بن أنس راعى أن الاستثناء منقطع، وكأنه يقول: [(١) حرمت عليكم هذه الأشياء لكن ماذكيتم فهو الذي لم يحرم]، وعند مالك قول يوافق الجمهور. قال ابن العربي المالكي: إن قول الإمام مالك في هذا كأنه فيه شبه تناقض؛ لأنه يقول في المريضة: إنها تؤكل وإن يُئس من حياتها يأسًا كليًا، ويؤكل المذكى وإن يُئس من حياته. ويقول في التي يُئس من حياتها بالوقذ كالتي يتناثر دماغها، أو بأكل السبع كالتي تنتثر حشوتها، ومع أن فيها حركة قوية: أنها لا تُؤكل. قالوا: هذا تناقض؛ لأنك ما دمت أحللت مثل ذلك في المريضة، فكيف لا تحلّه في أكيلة السبع؟ والجمهور على أنّ أكيلة السبع مثل المريضة عند مالك لو أدرك فيها أي حياة لأكلت، وكان بعض العلماء يقول: لو كان كل ما أُنفذ مقتله مات لكانت وصية عمر بن الخطاب بجعل الخلافة شورى بين الستة لا تقبل؛ لأنه أنفذ مقتله، والطبيب قال له: أوصِ فقد أنفذ مقتلك. وقد أوصى وعُمل بوصيته، وجعل الخلافة شورى بعد نفذ مقتله، جاء ذلك يدل على

---

(١) في هذا الموضع انقطاع يسير في التسجيل، وما بين المعقوفين زيادة من القرطبي (٦/ ٥٠) يتم بها الكلام.

أن هناك حياة.

والمالكية يقولون: مثل هذه الحياة كحياة المذبوح، لا نعتبرها حياة في الذكاة، والجمهور يقولون هذا[1]، وهذا قول مالك، وسبب الاختلاف هو الاختلاف: هل الاستثناء منقطع أو متصل كما بيّنا.

السؤال الثاني: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة/ ٥] إباحة صيد الكتابي مطلقًا، فهل الآية التي استدل بها مالك على تحريم صيده تخصص هذا العموم، أم لا؟ وهي قوله تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة/ ٩٤]، وهل خالفه أحد من أصحابه، أم لا؟ وهل وافقه أيضًا أحد من الأئمة أم لا؟[2].

الجواب: أمّا هذا فلم يوافق الإمام مالكًا فيه أحد من الأئمة الثلاثة، وخالفه جماعة من أصحابه، وروى عنه ابن بشير أنه مكروه لا حرام، وجمهور العلماء على أن صيد الكتابي كذكاته، وأنّ ذكاته بالعقر كذكاته بالذبح، وهذا عليه جمهور العلماء، ولم يوافق مالكًا فيه أحد من الأئمة الثلاثة، وكثير من أصحاب مالك خالفوه في هذا، وروى بعضهم عنه أنه مكروه كراهة تنزيه، وليس بمحرّم، وقد رواه ابن بشير وغيره، والرواية المشهورة من رواية ابن القاسم

---

(١) يقصد الشيخ بهذا: يعني الذي ذكرنا قبل وهو أن ماأدرك منه أدنى ما يصدق من عليه اسم الحياة جازت تذكيته.

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٦٦٣)، القرطبي (٦/ ٣٠١).

أنه حرام، وأنه يفرق فيه بين ذكاة العقر وذكاة الذبح.

وقد استدل مالك بالآية التي تفضّل بها فضيلة الشيخ؛ لأن الله قال في الصيد: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ وأضاف الأيدي والرّماح للمسلمين، فعلم من ذلك أنه لا يحل منه إلا ما كان بأيدي أو رماح المسلمين. والجمهور يقولون: إن هذا أصرح منه قول: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة/ ٥]. وقد أجمع العلماء أن ذبائحهم داخلة في ذلك، قالوا: ولا فرق بين العقر والذبح؛ لأن العقر والذبح كلاهما نوع من أنواع الذكاة.

السؤال الثالث: لما كانت زكاة العروض للمدير عند مالك لا يلزم صاحبها أن يزكيها إلا إذا لم يبق له دينار أو درهم، فهل إذا كانت الدراهم والدنانير تباع بالأسواق، وتوجد فيها الأرباح الكثيرة، ولم يشترها المدير يُعد ذلك فرارًا من الزكاة، ويعامل بنقيض قصده أم لا؟ وهل الورق المتعامل فيه اليوم بدل العين تجب فيه الزكاة، أم هو كسائر العُروض؟[١].

الجواب: أمّا التجارات فجماهير علماء الأمصار، والأئمة الأربعة، والصحابة كلهم مطبقون على وجوب زكاة التجارة[٢]، ولم يخالف في هذا إلا بعض الظاهرية كابن حزم[٣]، قال: إنه لا

---

(١) انظر: الأضواء (١/ ٢٥٦).

(٢) انظر: المبسوط (٢/ ١٩٠)، المحلى (٦/ ١١٤)، المجموع (٦/ ٤٧)، المغني (٤/ ٢٤٩ ـ ٢٦٢)، الموسوعة الفقهية (٢٣/ ٢٦٨)، الأضواء (٢/ ٤٥٧).

(٣) انظر: المحلى (٦/ ١١٤).

زكاة في التجارة، وإنه لم يقم دليل قائم على زكاة التجارة.
والجمهور معهم الحق، استدلوا على وجوب الزكاة في التجارات بأدلة:

أولاً: أنها ورد فيها حديثان مرفوعان إلى النبي ﷺ عن صحابيين[1]، والواقع في الحقيقة أن كل واحد من الحديثين لا

---

(١) أما الأول فحديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا: «في الإبل صدقتها، وفي الغنم صدقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البز صدقته».
أخرجه ابن أبي شيبة (٣/٢١٣)، وأحمد (٥/١٧٩)، والترمذي في العلل الكبير (١/٣٠٧) وعقبه بقوله: «سألت محمدًا عن هذا الحديث فقال: ابن جريج لم يسمع من عمران بن أبي أنس. يقول: حُدِّثت عن عمران بن أبي أنس»اهـ. وابن زنجويه في الأموال (٢/٧٨٣)، والبزار (٩/٣٤٠)، والبيهقي (٤/١٤٧)، والحاكم (١/٣٨٨)، وقال: «على شرط الشيخين ولم يخرجاه»اهـ. وتعقبه ابن عبدالهادي في التنقيح (٢/١٤٣٨) بقوله: «وفيه نظر»اهـ. وأخرجه الدارقطني (٢/١٠١ ـ ١٠٢). (بألفاظ متقاربة). والحديث ضعفه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٢/٣٨٨)، (٥/٥٥ ـ ٥٦)، وذكر له الحافظ في التلخيص (٢/١٧٩) أربعة طرق ـ وهي عند الدارقطني ـ فضعف ـ الحافظ ـ ثلاثة منها وقال عن الرابع: «وهذا إسناد لا بأس به»اهـ. وقال عن هذا الحديث في الدراية (١/٢٦٠): «وإسناده حسن»اهـ. وانظر في الكلام عليه: تنقيح التحقيق (٢/١٤٣٦ ـ ١٤٣٧)، إتحاف المهرة (١٤/١١)، نصب الراية (٢/٣٧٦)، أضواء البيان (٢/٤٥٨).
وأما الحديث الثاني: فحديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: «أما بعد، فإن رسول الله ﷺ يأمرنا أن نُخرج الصدقة من الذي نُعِدُّ للبيع».
أخرجه أبو داود في الزكاة، باب العروض إذا كانت للتجارة هل فيها من زكاة؟ حديث رقم (١٥٤٧)، (٤/٤٢٤)، والدارقطني (٢/١٢٧)، والبيهقي =

يخلو سنده من كلام، إلا أن الجمهور قالوا: هذان الحديثان ـ وإن كان كل واحد منهما لا يخلو سنده من مقال ـ فإنهما قد يعتضد أحدهما بالآخر، ويعتضد ذلك بما ثبت بسند صحيح لا مطعن فيه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه أنه أخذ زكاة الجلود من تاجر يتجر بالجلود[1]. هذا ثابت عن عمر بن

= في الكبرى (٤/ ١٤٦ ـ ١٤٧) وفي الصغرى (١/ ٣٢٧)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٥٣، ٢٥٧)، وذكره ابن حزم في المحلى (٥/ ٢٣٤) وقال: «أما حديث سمرة فساقط؛ لأن جميع رواته مابين سليمان بن موسى وسمرة رضي الله عنه مجهولون لا يُعرف من هم»اهـ. وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٩): «في إسناده ضعف»اهـ. وقال الذهبي في الميزان (١/ ٤٠٨) عن سلسلة هذا الإسناد: «وبكل حال هذا إسناد مظلم لا ينهض بحكم»اهـ. وقال ابن عبدالهادي في التنقيح (٢/ ١٤٣٥): «انفرد أبو داود بإخراج هذا الحديث وإسناده حسن غريب»اهـ. والحديث سكت عنه أبو داود والمنذري، وحسنه ابن عبدالبر، وضعفه الحافظ في التلخيص (٢/ ١٧٩)، والدراية (١/ ٢٦٠) والألباني في التعليق على المشكاة (١/ ٥٦٨)، ضعيف أبي داود (ص١٥٤). وانظر: بيان الوهم والإيهام (٥/ ١٣٩)، إتحاف المهرة (٦/ ٣٠)، تنقيح التحقيق (٢/ ١٤٣٥)، التعليق المغني على الدارقطني (٢/ ١٢٧ ـ ١٢٨)، أضواء البيان (٢/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ١٨٣)، والشافعي (شفاء العي بتخريج وتحقيق مسند الشافعي) (١/ ٤١٤)، وفي الأم (٢/ ٤٦)، وأبو عبيد في الأموال (ص٣٨٤)، وعبدالرزاق (٤/ ٩٦)، والبيهقي (١/ ٣٢٧)، وابن زنجويه في الأموال (٣/ ٩٤١ ـ ٩٤٢)، وذكره ابن حزم في المحلى (٥/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥)، وقال: «وأما حديث عمر فلا يصح؛ لأنه عن أبي عمرو بن حماس عن أبيه، وهما مجهولان»اهـ. وانظر: تلخيص الحبير (٢/ ١٨٠).

الخطاب ثبوتًا لا مطعن فيه، ولم يخالف أحد من الصحابة، فكان إجماعًا سكوتيًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وقد ثبت عن عمر بن عبدالعزيز ـ وهو من خيار الخلفاء العظام ـ أنه كان يقيم الناس في الطرق، ويأخذ الزكاة من التجارات[1]، وقد قال الإمام البخاري ـ إمام المحدثين ـ في صحيحه: «باب في زكاة التجارة»[2]، وجعل هذا العنوان لزكاة التجارة، ولكنه لم يكن فيها حديث على شرط البخاري ـ لصعوبة شرط البخاري ـ فساق تحت هذا العنوان بسنده الصحيح عن مجاهد أنه فسر قوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة/ ٢٦٧]، قال: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ يعني التجارات. ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يعني: الثمار والحبوب.

وإذا عرفنا مثلاً أن جميع العلماء يقولون بزكاة التجارات، وأنه لم يخالف في ذلك إلا من لا يعتد بهم كبعض أتباع داود كابن‌حزم[3]، فجميع العلماء لا يشترطون في التجارة وجوب شيء.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (ص١٧٠)، (٥٩٦).

(٢) في كتاب الزكاة باب: صدقة الكسب والتجار (٣/ ٣٠٧). واقتصر في هذا الباب على آية البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ـ إلى قوله ـ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. قال الحافظ: «وكأنه أشار إلى ما رواه شعبة عن الحكم عن مجاهد في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ قال: من التجارة الحلال»اهـ. إلى آخر ما ذكره الحافظ رحمه الله. والمقصود أن أثر مجاهد لم يورده البخاري رحمه الله وإنما ذكره الحافظ كما رأيت.

(٣) انظر: المحلى (٦/ ٤١٤).

وخالف مالك في مشهور مذهبه، واشترط في تقويم عروض التجارة أن يصل يد التاجر نقد المال، وعبّر بالمدوّنة بربع درهم، وشرّاحها يقولون: ولو أقل من ربع درهم، وهذا خالف فيه مالك جميع العلماء، حتى إنّ ابن حبيب من أصحابه خالفه وانضمّ إلى الجمهور، ولكنّا نقول: إن الإمام مالكًا، إنما قال هذا في وقت يكثر فيه الذهب والفضة، وينتشر فيه التجارة بالذهب والفضة، وهي أغلب الأثمان، وأن الأغلب عادة لا بدّ أن يصل يد مدير العروض بعض نقد المال؛ لأنه هو الذي به العمل والسعي في جميع المشتريات، ولا يكاد تاجر يسلم منه، أمّا لو كان مالك موجودًا في زمننا هذا ـ بحيث لا يوجد نقد ولا فضة ولا ذهب ـ فمن المستحيل أن يقول للتاجر: هذه التجارات الطائلة، والأرباح النامية سنة بعد سنة تُشترى بها العقارات والدُّور هي معفاة من الزكاة، هذا ليس بصحيح، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة/ ٢٦٧].

ونحن نقول: إنه لو فرضنا أن هناك أقوال وزيد يقول وعمرو يقول، فسيّد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ علمنا تعاليم واضحة، وأنوارًا نبوية ليس لنا أن نعدل عنها، وهو قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[1] وقوله:

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (٣/ ١١٧ ـ ١١٨)، والطيالسي (ص١٦٣)، والدارمي (٢/ ١٦١)، وأحمد (١/ ٢٠٠)، والترمذي في أبواب صفة القيامة، باب =

«فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»[1]، والزكاة ليست بالأمر الهين؛ لأنها دعيمة من دعائم الإسلام، ومن جاءت في ذمته فويله وويله، والله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة/ ٣٤،٣٥] والتجارات نائبة عن الذهب والفضة؛ ولذا العلماء يقومونها بالذهب والفضة، ويخرجون منها ربع العشر كزكاة الذهب والفضة.

أمّا الأوراق فلم تكن في زمن النبي ﷺ، ولم يرد فيها نص من

= (٦٠)، حديث رقم (٢٥١٨) ٤/٦٦٨، والنسائي في الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات. حديث رقم (٥٧١١) ٨/٣٢٧، والحاكم (٢/١٣) ٤/٩٩، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»اهـ. وابن حبان (الإحسان ٢/٥٢)، والطبراني (٣/ ٧٥ ـ ٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٦٤)، وأبو يعلى (١٢/ ١٣٢)، من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه. وصححه الألباني في الإرواء (٧/ ١٥٥)، غاية المرام (ص١٣٠ ـ ١٣١) المشكاة (٢/ ٨٤٥)، صحيح الترمذي (٢/ ٣٠٩)، ظلال الجنة (١٧٩). وللحديث شاهد من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه عند أبي يعلى (١٣/ ٤٧٦)، والطبراني (٢٢/ ٧٨)، ومن حديث أنس رضي الله عنه (موقوفًا) عند أحمد (٣/ ١١٢، ١٥٣)، ومن حديث ابن عمر عند الطبراني في الصغير (١/ ١٠٢)، وعقبه بقوله: «تفرد به عبدالله بن أبي رومان»اهـ. وانظر: الإرواء (٧/ ١٥٦).

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه. حديث رقم (٥٢) ١/١٢٦. وأخرجه في موضع آخر برقم (٢٠٥١). ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات حديث رقم (١٥٩٩) ٣/ ١٢١٩.

كتاب ولا سنّة، وعندما حدثت فالمتأخرون من العلماء اختلفت وجهات نظرهم فيها، فجماعة قالوا: هي كعروض التجارة، وقال به جماعة من متأخري المالكية والحنابلة، وهذا القول لا يظهر كل الظهور؛ لأن العرض غالبًا لابد أن تكون في ذاته منفعة مالية متمولة، وهي لا منفعة فيها، وجماعة قالوا: هي أسانيد لفلوس، وهذا أقرب إلى الحقائق؛ لأن عليها سطرًا مكتوبًا فيه: إن المؤسسة الفلانية تتعهد لحامل هذا السند أن تعطيه كذا. فهي إلى السندات أقرب، والذي وجد من هذا عن الصحابة أنهم جعلوا السند بمنزلة الشيء المكتوب فيه؛ ولذا قالوا في بيع الصكاك الذي جاء في صحيح مسلم وموطأ الإمام مالك، ومقصودي ببيع الصكاك: أنه في أيام إمامة مروان بن الحكم على المدينة، الحكومة أعطت للناس طعامًا مكتوبًا في صكوك وأوراق إلى بيت المال، فجماعة باعوا الطعام في هذه الصكوك قبل القبض، فعامّة الموجودين من العلماء قالوا: لا يجوز هذا؛ لأنكم بعتم الطعام قبل قبضه[1]، فلم يجعلوا هذه الورقة عَرَضًا، وإنما قالوا إن المدار على الشيء المكتوب فيها، وهذا أقرب الوجهين. وعلى كل حال فالذي نوصي به أنفسنا وإخواننا بتقوى الله، وأن الواحد إذا كان عنده تجارة مال من أوراق أو من غيره ينمو نموًا بعد نمو ويزداد أنه ليس من المنطق الإسلامي الرحب أن يترك الفقراء محرومين من هذا؛ لأن

---

(١) الموطأ (ص٤٤٣)، (١٣٣٣)، ومسلم في البيوع، باب بطلان بيع المبيع قبل القبض (١٥٢٨)، (٣/ ١١٦٢).

النبي ﷺ أوجب على الأغنياء صدقة ترد إلى الفقراء، والعلماء مطبقون على أن التجارة كذلك.

فالذي نشير به على إخواننا أن يخرجوا الزكاة، ويستبرئوا لدينهم وعرضهم، وأن لا تكون في هذه الدعيمة خصومة، قبلما لا يدرون أيتخلصون أم لا؟

الأخ سأل عن معنى هذه الآية: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾، يعني: إذا كنتم تخرجون زكاة لا تنظروا إلى رديء المال وخسيسه فتخرجونه، ولستم بآخذيه لو كان الحق لكم، لو كنتم أنتم الذين تطلبون الحق لا تقبلون ذلك الرديء و﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة/ ٢٦٧] تغمضوا أعينكم على القذى، يعني كارهين لذلك، فالشيء الذي لا ترضونه لأنفسكم ـ لو كان الحق لكم ـ لا ترضوه لله في حقه جل وعلا.

السؤال الرابع: ما عندكم في لزوم الصوم، أو وجوب الفطر لخبر الرجل مع اتحاد القطر؟ وما عندكم في الاستماع لقراءة القرآن [في الإذاعة]؟.

الجواب: أما هذا الذي سأل عنه فضيلة الشيخ وهو: هل إذا أذيع من قِبَل الحكومة أن الهلال ثبت في المحل الفلاني، هل يصام أو يفطر بهذا أو لا؟ نحن نقول: إذا حكم بثبوت شهر رمضان أو شوال حاكم بطريق شرعية، وصار الحكم من طريق قاض بطريق شرعية، ثم إن الحكومة بلَّغته عن طريق الإذاعة، أن الذي يظهر لنا أن على المسلمين أن يصوموا ويفطروا بذلك، والاستناد في هذا

والدليل عليه مستند إلى شيئين:

أولهما: أن الكتاب والسنة وإجماع العلماء دل على أن الغرض الأكبر في الأخبار غايته أن يوجد شيء يغلب على الظن صدقه، وتركن إليه النفس ركونًا مزاحمًا لليقين بحيث لو راجع الإنسان عقله يثق أن هذا الأمر واقع، ولو لم تشهد به بيّنة، وقد قال سيّدي في «مراقي السّعود» في مباحث الأخبار[1]:

«بغالب الظنّ يدور المُعْتبَر».

وقد صدق، ونحن نضرب لكم أمثالاً من هذا:

هذا إمام دار الهجرة النجم مالك بن أنس ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ سُئل عن رجلٍ استنْكِه فشُمّ من فيه ريح الخمر، فأفتى بجلده، وأقام حدًا، ولم تقم بينة عدول يشهدون أن هذا الرجل شرب خمرًا، ولكن ريح الخمر قرينة تركن إليها النفس، ويغلب على الظن أنه شرب الخمر. وقد أجمع المالكية ـ مالك وعامة أصحابه ـ على العمل بالتدمية[2] الحمراء، وإن أنكرها عليه غيره، لو وُجد رجل يتشحّط في دمه، وقال: دمي عند فلان، فإن مالكًا

---

(١) هذا الشطر الأول من البيت. وشطره الثاني:

فاعتبَر الإسلامَ كلُّ مَن غَبَر

انظر: المراقي (ص٧١).

(٢) انظر: القرطبي (١/ ٤٥٧)، الأضواء (٣/ ٥٦٣)، العذب النمير (عند تفسير الآية رقم ٧٣ من سورة البقرة).

يفتي بأن أولياءه يحلفون القسامة، ويقتلون ذلك الرجل، نفسٌ تقول: (لا إله إلا الله) يتجرأ مالك على إزالة رأسها عن عنقها، ولم تقم بينة؛ لأنه رأى القرينة التي تركن النفس إلى صدقها ركونًا بينًا أن الإنسان إذا كان في غمرات الموت لا يكاد يكذب أبدًا؛ لأنه زالت أغراضه من الدنيا، ولم يبق له سبب للكذب.

وفي ذلك الوقت اللدود الكافر الخنزير يسلم ويذهب إلى الحق، هذا فرعون الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات/ ٢٤] لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس/ ٩٠]، والله يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ [غافر/ ٨٤، ٨٥].

وهذا نبي الله يوسف برأه الله بقضية عادلة من ذلك الشاهد، لم تقم فيها بينة، إلا أن النفس تركن إليها ركونًا يغلب على الظن أنه صدق، والله جاء بذلك مستحسنًا له في معرض التسليم، مبرئًا به نبيه الكريم، ذلك أن امرأة العزيز لما بهتته وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف/ ٢٥] اضطر إلى الدفاع، فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ وليس هنالك شهود يعلمون هو الكاذب، أو هي الكاذبة، فالشاهد قال لهم: انظروا إلى أمر تركن نفوسكم إليه يغنيكم عن البينة، انظروا قميص الرّجل فإن كان مشقوقًا من الأمام فهو يصول إليها، وهي تدفعه، وإن كان مشقوقًا من الوراء فهو هارب وهي تنوشه من ورائه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ

﴿قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ [يوسف/ ٢٦، ٢٧]، محل الشاهد: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ [يوسف/ ٢٨]، فألزموها الجناية، وحكموا عليها، والقرآن جاء بهذا في معرض الاستحسان والتصويب، وبراءة يوسف بهذا.

فتبين أن هذا الأمر الذي ركنت إليه النفس وغلب على الظن صدقه يقوم مقام البينة، وإخوته أولاد يعقوب لمّا جعلوا أخاهم في غيابة الجبّ أخذوا سخلةً فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها؛ ليكون الدّم قرينة لهم على صدقهم في أنّ [يوسف][1] أكله الذئب. فلمّا جاؤوا بالقميص عشاءً يبكون، تأمّل يعقوب في القميص فوجده ليس فيه شق، فقال: سبحان الله متى كان الذئب حليمًا كيِّسًا يقتل يوسف ولا يشق قميصه؟!! وعلم بقرينة القميص أنهم كاذبون؛ ولذا قال الله عنه: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾ [يوسف/ ١٨]، وقد أجمع علماء التفسير أنَّ مستند يعقوب في قوله: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾ قرينة عدم شق القميص كما جزم به أبو عبدالله القرطبي في تفسير هذه الآية[2].

وقد أجمع العلماء عن بكرة أبيهم على أن الرجل يخطب المرأة ولم يرها قط، ويتزوجها من غير أن يراها، وإنما يسمع أن عند فلان بن فلان ابنة، فيخطبها وتزفّها إليه ولائد لا يثبت بقولهن درهم

(١) في الأصل يعقوب وهو سبق لسان.

(٢) انظر: القرطبي (٩/ ١٥٠)، الأضواء (٣/ ٧١)، العذب النمير (تفسير الآية رقم ٩٠) من سورة الأنعام.

ولا دينار، فقد أجمع العلماء أنّ له مسيسها من غير بينة تشهد على أنّ هذه عين فلانة بنت فلان التي وقع عليها العقد؛ لأنّ قرينة الصداق والعقد تدلّ على هذا، وتقوم مقام البينة مقامًا تركن إليه النفس، ويغلب على الظّن صدقه.

وقد أطبق العلماء على أنّ الرّجل ينزل عند القوم فيأتيه الوليد والوليدة بطعام القوم ـ والطعام محترم معصوم ـ فليس عليه أن يتثبت ويلبث إلا ببينة تشهد أنه أذن له، فيأكل لأنّ قرينة الضيافة أمورٌ تركن إليها النفس ويغلب بها على الظنّ أنها أمرٌ حقيقي.

كذلك إذاعة الحكومة يحتف بها من القرائن، لا يمكن أحد أن يأخذها ويزوّر، والنفس تركن إليها ركونًا قويًا إن لم يكن يقينًا فهو مزاحم لليقين، أقوى من يقين شاهد أو شاهدين.

والنكتة الثانية: هو أن وليّ الأمر الذي يتولى أمور الناس على الناس أن تطيعه ولا تظهر الخلاف؛ لأن واحدًا صائم، وواحدًا غير صائم هذا شبه إظهار خلاف ونزاعات، وهذا يفت في عضد الأمة، والرمز إلى الخلاف لا ينبغي، فيجب على المسلمين جميعًا أن يكونوا منسجمين في غاية الاتفاق، الحاكم والمحكوم تتساعد جهودهم على الخير.

أما استماع القرآن فيه[1]: فالواقع في الحقيقة أن الذي يسمع

---

(١) يعني في الإذاعة.

السامع في الرّاديو هو نفس صوت القارىء، إذا كان صوت القراءة طيبة، ولم تكن مقرونة بأمور تقتضي الاستهزاء فلا مانع، وإن كان بتمطيط لا يجوز، أو مقروءًا بحالة لا تقوم بالإجلال اللائق بالقرآن، كقولهم: «أغاني مسجلة لأم كلثوم وآيات من الذكر الحكيم»!! إذا كان فيه أشياء ليس فيها احترام للقرآن كما ينبغي، أو الحال لا تجوز، فينبغي ألاَّ يُسمع، وإن كان قراءة على بابها فهو صوت القارىء، لا بأس به.

السؤال الخامس: ماهو حدّ البدعة التي من ارتكبها يعدّ مخالفًا للسنّة؟ وما عندكم فيما يفعله بعض متصوفة زماننا من حركات، والكلمات التي لا تعلّق لها بالصلاة، كاستدبار القبلة، والرقص والكلام بنحو: «مرّ، مرّ» مع الجزم بأنّ هذا كله لا يؤثر خللاً في صلاتهم زاعمين الغلبة في الحال؟

الجواب: على كل حال: حدّ البدعة هو أن يبتدع الإنسان في الدّين شيئًا لم يأت في كتاب ولا سنّة ولم يأت ما يدل عليه، كل من جاء بشيء لم يأت في كتاب الله ولا سنة نبيه منصوصًا، ولا جاء فيها ما يدل عليه بوجهٍ من الدّلالات بمفهوم ومنطوق أو غير ذلك، فهذا هو البدعة، أمّا ما جاء في النصوص، أو ما يدخل في عموم النصوص، أو ما يؤخذ بالاستنباط من النصوص فهذا ليس بالبدعة، ومحل البدعة أن يكون أمرًا دينيًا، أمّا الأمور الدّنيوية فليس في المخترعات منها بدعة.

وأما الحركات في الصلاة، والأفعال المضادّة للصّلاة فهي

حرام بإجماع المسلمين، ولا يقرها الشرع من أحدٍ أبدًا ألبتة، ولاشك أنها نزغات شيطانية «ميّة في الميّة» ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء/ ١٢٣] فالصلاة لا يُسامَح فيها أحد بأن يتكلم فيها، بل المؤمن إذا قام في الصلاة علم أنه قائم بين يدي ملك السماوات والأرض يناجيه، فامتلأ قلبه نورًا، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأكبر الفحشاء والمنكر الصراخ والصعق في الصّلاة، فهو نزغات شيطانية بلا خلاف، ولايشك فيها من أعطاه الله علمًا، ومن يحبذها فهو ضال؛ لأن الصلاة هذه أعظم دعائم الإسلام، والمسلم إذا وقع فيها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت/ ٤٥]، والكلام في أثناء الصلاة استهزاء بخالق الكون، وتمرد على نظام السماء، وعدم اهتمام بأعظم دعيمة من دعائم الإسلام، ولا يفعله إلا جاهل ينزغ فيه الشيطان، ليس هنالك علم راسخ ولا دين ثابت؛ لأن صاحب العلم الراسخ والدين الثابت كيف يتحرك ويزعق في صلاته؟ والشيطان إنما ينخسهم ويقول: هذه أحوال ووجدانيات، وكل هذا باطل، الصحابة لم يزعق واحدٌ منهم في صلاته، وكانوا كأن على رؤوسهم الطير، والنبي وهو سيد الخلق لم يتكلم في صلاته إلا بما يرضي الله بغاية الخشوع، وهذا أمر معروف لا يُسأل عنه أحد.

السؤال السادس: ما عندكم في أداء الصلاة في الطائرة الجوية إذا تيقن عدم النزول إلا بعد خروج الوقت؟

الجواب: أما أنا فقد يدخل عليّ الوقت مرارًا وأنا في الطائرة، وأصلي فيها، وأرى أن الإنسان إذا دخل عليه الوقت يصلي في الحالة التي هو بها؛ لأن الله يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن/ ١٦]، والنبي يقول: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[(١)] ولا سيما إذا كان يركع ويسجد والقبلة يعرفها، وهذا الشائع في الناس أنه لابد من الأرض، ويستدلون بحديث: «جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»[(٢)]، وأنا لم أجد له مَقْنَعًا في كتاب الله ولا في سنّة نبيّه؛ لأن حديث: «جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» صيغته لا تقتضي عمومًا بإجماع أهل اللسان العربي، وإجماع الأصوليين، ولو اقتضت العموم لما كان الماء طهورًا أبدًا؛ لأنه لو حصرنا الطهور والمسجد فيه لكان الطهور محصورًا في نفس التراب، مع أن المالكية يقولون: إنها لا تطهر حدثًا ولا خبثًا ولا ترفع الحدث، وكل نصّ سيق للامتنان لا مفهوم له، ومن هنا أجمع عامة العلماء

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. حديث رقم (٧٢٨٨) ١٣/ ٢٥١، ومسلم، كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم (١٣٣٧) ٢/ ٩٧٥، وفي كتاب الفضائل، باب: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، ورقمه في كتاب الفضائل (١٣٠) ٤/ ١٨٣٠ ـ ١٨٣١.

(٢) رواه جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ كأبي هريرة وجابر وحذيفة، وأبي أمامة، وأبي ذر، وعبدالله بن عمرو، وابن عباس وعلي رضي الله عنهم أجمعين. ومن هذه المرويات ما أخرجه الشيخان أو أحدهما، ومنها ما أخرجه غيرهم، وبالجملة فالحديث متواتر ولا يسع تتبع تخريجه في هذه التعليقات المختصرة.

على جواز أكل القديد من الحوت، لو يَبَّست الحوت وجعلته قديدًا بالملح لجاز أكله، والله يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل/ ١٤] فلا نقول: مفهوم اللحم الطري أن قديد الحوت لا يؤكل؛ لأنه سيق للامتنان، فلو فرضنا أنه لابد من متصل بالأرض فالطائرة متصلة بالأكسجين، والأكسجين جرم متصل بالأرض مثل الماء، فلو أخذت قربتين، وأحدها يملؤها رجل من الماء، والثاني يملؤها من الأكسجين لامتلأت من الأكسجين قبل هذه، ولو رأيتهما مطروحتين لم تفرق بينهما التي من الماء والتي من الأكسجين حتى تجذبها، فهذا أخفّ، وهذا أثقل، وعلى كل حال فالمسلم حيثما كان صلى، والنبي يقول: «اتق الله حيثما كنت»، ومن تقوى الله ـ جل وعلا ـ إقامة الصلاة في وقتها[١].

[السؤال السابع[٢]: [٣] عن حكمة جعل الطلاق بيد الرجل].

الجواب: (...) معنى الآية في قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة/ ٢٢٣] ويبين أن الرجل زارع والمرأة مزرعة، وأن الرجل

(١) بعد إجابة الشيخ رحمه الله على هذه الأسئلة الستة التي سأله عنها أحد المشايخ في موريتانيا ختم ذلك السائل بقوله: «وهذه الأسئلة لابد لكم بعد الرجوع وعودتكم إلى البلاد المقدسة أن تجعلوها تأليفًا مستقلاً وترسلوها لنا» فأجابه الشيخ رحمه الله بقوله: «إن شاء الله».

(٢) السؤال السابع إلى الثامن عشر من الشريط الثالث.

(٣) نص السؤال ذهب من التسجيل وكذا صدر الإجابة. وقد أثبت السؤال أعلاه زيادة على الأصل وجعلته بين معقوفين.

فاعل والمرأة مفعول به، هذه أمور محسوسة لايمكن أن ينكرها إلا مكابر، ونحن نضرب لكم مثلاً حسيًا في ذلك: لو أردنا أن نرغم رجلاً على امرأة لا يحبها ولا يريدها وأراد أن يطلقها، وقلنا مجاراةً للإفرنج على سبيل الفرض: لا، لا يمكنك أن تطلقها، ولابد أن تبقى معها!! فهذه المرأة لو أرادت أن تَعْلَقَ من هذا الرجل بحمل ـ والحمل هو أكبر الأغراض في النكاح ـ فإنها إذا أرادت أن تجامعه لتعلق منه بحمل، لا ينتشر ذكره إليها ولا تقدر أن تصل منه على فائدة، هذا أمرٌ مشاهد ملموس، بخلاف الرجل فإنه قد يُحبلها وهي راغمة كارهة فتلد فارسًا فيه خير البشرية جمعاء، كما قال أبو كبير الهذلي(١):

ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مُهَبَّل

حملت به في ليلة مزؤودة كرهًا، وعقد نطاقها لم يُحلل

فهذه أمور محسوسة تبين أن الرجل زارع وأن المرأة مزرعة، ولا أصدق من الله حيث يقول: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ [البقرة/ ٢٢٣] تُبذر فيه النطف حتى تستحصد.

وهذه المزرعة تقوم للإنسانية بأعمال وخدمات هائلة لا يوجد مثلها، فالمرأة تقوم للإنسانية بأعظم مما يقوم به الرجل.

فإذا عرفنا من القرآن ومن الأمور المحسوسة أن المرأة مزرعة

---

(١) ديوان الهذليين: (٣/ ١٠٧٢)، وذكرت في ديوان تأبط شرًا (ص٨٨)، الكامل (١/ ١٧٥)، مغني اللبيب (٢/ ١٩٣)، شواهد الكشاف (ص١٠٥).

وحقل زراعة، وأن الرجل فاعل والمرأة مفعول، والرجل زارع والمرأة مزرعة، فلو قارنا مع هذا ووجدنا رجلاً علم أن الحقل الفلاني ليس صالحًا لزراعته ثم أراد أن ينتقل إلى حقل آخر ريعه أكثر وزراعته أكبر فقلنا له: لابد أن نرغمك على البقاء على الحقل الأوّل الذي لا يناسبك!! فعامّة الناس يقولون: قد ظلمتم هذا!! فهذه أمور واضحة لمن تأملها. ولكن كون المرأة تعمل فيما يناسبها وما يلائمها مما خلقها الله له، وتساعد البشرية بأكبر مساعدة في عفاف وستر وصيانة، هذا أمر يردي الشيطان ويحسُد الآدميين عليه، فيقول للمرأة: جعلوك مقفولاً عليكِ، أنتِ دجاجة، أنت لست بإنسان، فلابد أن تقومي وتدخلي في ميادين الحياة والكفاح!! فإذا خرجت بقي ولدها الرضيع لا يجد من يُرضعه، وولدها الفطيم لا يجد من يحفظه، وولدها المريض لا يجد من يقوم عليه، وشؤون بيتها لا تجد من يصلحها، فيضطرون إلى أن يؤجروا إنسانًا يقوم مقامها، فيبقى ذلك الإنسان المسكين هو الدجاجة المحبوسة، التي فرّت هي من أن تكون مثلها، فترجع النتيجة في حافرتها.

وعلى كل حال فنحن نقول في هذا: إن جميع العقلاء مطبقون على أن الأنوثة وصف نقص جبلي خلقي طبعي، وهذا معروف في أقطار الدنيا، أنه لا تكاد امرأة أن تقاوم ذكرًا، حتى إن الصفات التي هي نقص في الرجال مدح في النساء، ألا ترون أن ضعف البُنية والأركان والعظام هذا عيب في الرجال؟ وهذا من محاسن النساء الذي يجلب إليهن القلوب ويحببهن! هذا جرير وهو عربي

قَحّ سليم القريحة. يقول[1]:

إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله أركانا

فأثنى عليهن بالضعف، والرجل لو قيل عنه الضعف لكان ذمًّا؛ فلأجل المنافاة في الخلقة والطبيعة يكون الوصف الذي هو ذم لهذا هو بعينه مدح لهذا، وكذلك الرجل الذي لا يقدر أن يُبيْن في الخصام هذا عيب في الرجال، وربما كان هذا من محاسن النساء التي تجذب إليهن القلوب، هذا عبدالله بن الدمينة يقول[2]:

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له   ببعض الأذى لم يدر كيف يُجيبُ
فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل   به سكتة حتى يقال مريب

فجعل هذا العي وعدم الإبانة في الخصام كما قال الله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ۝١٨﴾ [الزخرف/ ١٨] جعله من محاسنهن الذي يجلب إليهن القلوب ويُستحسن منهن، وهو نقص في الرجال.

فهذه حِكَمُ الله وأموره الشرعية الحسيّة المعقولة أن المرأة تخالف الرجل في جبلتها وطبيعتها؛ ولأجل تلك الخلافات الطبيعية اختلفا في الأحكام، فكان الرجل لقوة ذكورته وكمالها قائمًا على

---

(١) ديوان جرير (ص٤٥٢).
(٢) ديوان مجنون ليلى (ص٢٩)، عيون الأخبار (٣/١٠٣)، الشعر والشعراء (ص٤٩٢).

المرأة مكلفًا بشؤونها في ميادين الحياة، وإذا المرأة لم تجد من يقوم بها فلها أن تشارك في ميادين الحياة لكن مع الصيانة والستر والعفاف؛ لأن المرأة لا يجوز لها أن تجعل نفسها مائدة للخونة، وربما كان الخائن يريد النظرة الفاجرة يحبها ويقدمها على كل شيء، كما قال أحدهم[1]:

قلت اسمحوا لي أن أفوز بنظرة ودعوا القيامة بعد ذاك تقومُ

فهذه العين الخائنة التي تتمنى الخيانة بالنظر إلى هذا الحدّ لا ينبغي للإنسان[2].

وعلى كل حال فكل من فيه مروءة يعلم هذا، لو عرضنا على أطرف إنسان فيه مروءة وقلنا له: أتحب أن تخرج أخواتك وبناتك وزوجتك أمام الناس وأمام أعين الخونة يتمتعون بجمالهن ظلمًا ومكرًا وغدرًا وجناية على الشرف والرذيلة، وجناية على المرأة؟ فكل العقلاء يقولون: لا ينبغي هذا.

فيُعلم من هذا أن المرأة إذا زاولت بعض الأعمال في صيانة وستر وعفاف فلا مانع، وإذا أرادت أن تزاول بعض الأعمال في تكشف وأمور لا تليق بالفضيلة، بل هي تليق بالرذيلة والانحطاط الخلقي وضياع القيم العليا والمُثُل العظيمة للإنسانية هذا أمر لا ينبغي.

ووجه كون الطلاق بيد الرجل هو مابيّنا من أن النساء مزارع،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أي: أن يكون كذلك.

نصّ الله على ذلك في قوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة/ ٢٢٣] وهو مشاهد في أن آلة الازدراع مع الرجل، وأن الرجل فاعلٌ حسًّا، وأن المرأة مفعولٌ به، والرجل زارع والمرأة مزرعة، ولو أُعطي الإنسان خياره في الحقل الذي يناسب زراعته لكان أمرًا معقول الحكمة، واضح المعنى عند جماعة العقلاء.

[**السؤال الثامن:**][1] لو قيل إن عقد الزوجية تعاقد بين طرفين: الزوج والزوجة، والزوج دافع الصداق، فلو جُعل من الناحية العقلية أن الطلاق بيد المرأة لضيعت على زوجها حقه، فيكون هذا من الناحية العقلية كذلك.

الجواب: هذا الذي أشرنا له في الآية الكريمة؛ لأن الله قال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء/ ٣٤] وعلل بعلتين: إحداهما: فضل الذكر على الأنثى في الخلقة والجبلة، وهو ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء/ ٣٤].

الثانية: دفع المال ـ كما تفضلتم ـ وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء/ ٣٤][2].

على كل حال الذي بينا هذه الفروع إذا كان الرجل هو الفاعل

---

(١) هذا السؤال هو أشبه بالإضافة من الشيخ عطية رحمه الله على ما ذكره الشيخ رحمه الله.

(٢) هنا مداخلة من الشيخ عطية رحمه الله حيث سأل عن ماهية الزواج وعن علاقته بالناحية الروحية والمادية. فكان جواب الشيخ رحمه الله بقوله: «على كل حال...» إلخ.

والقائم، ولو فرضنا أن نرغم الرجل على المرأة وهو لا يريدها لم يكن في ذلك فائدة ولا نتيجة للمرأة، والمرأة: الرجل لم يأخذ منها شيئًا، وإنما مكث معها ينفعها، أعطاها صداقًا ودفع لها مدة حياته ينفقها، لم يأخذ منها شيئًا، وإن هذا الذي يقول: إنما ضاع جمالها!! ضاع بالأيام والليالي، الأيام والليالي هي التي أضاعته، الرجل لم يضعه ولم يجن عليه.

عجوز تمنت أن تكون صبية ... وقد قوّس العينان واحدودب الظهر

فجاءت إلى العطار تبغي شبابها ... ولا يصلح العطار ما أفسد الدهر[1]

الرجل ليس هو الذي جنى عليها!

[**السؤال التاسع:**] أريد أن يبين الشيخ للناس أن المرأة ليست لعبة بين يديّ الرجل؛ لأن يكون الرجل عادلاً مع المرأة ويعطيها حقها، ولا يجعلها لعبة أي: إذا زال الغرض فيُلقيها عنه فهذا ليس من القِسط وليس من الإنسانية؛ لأنكم حثيتم على قيمة الإنسان في محاضرتكم، والإسلام يعطي حقًّا كثيرًا للإنسانية ومن الإنسانية أن يعطى للمرأة حقها أليس كذلك؟

الجواب: على كل حال هذه الفكرة كأنها تتسمَّم بفكرة أجنبية

---

(١) البيتان في الكامل للمبرد (١/ ٤٠٥) ولفظهما:

عجـوزٌ تُـرجِّـي أن تكـون فَتِيَّـة ... وقد لُعِبَ الجَنْبَان واحدَودَب الظهر

تَـدُسُّ إلـى العطّـارِ سِلعـةَ أهلِهـا ... وهَل يُصْلِحُ العطارُ ما أفسَدَ الدهرُ

عن الإسلام، ونحن نبين ونقول: إن الإسلام أحاط للمرأة جميع منافعها ولم يُضِعْ لها بمنفعة، ولم يتلاعب لها بمنفعة، أما الرجل الذي جاءها لم يجز له أن يتزوجها إلا بصداق ومال، والمدّة التي يمكث معها يجب عليه إنفاقها وكفايتها من كل شيء، وإذا زالت بكارتها وزال غرضه منها لا مانع من أن يطلقها، وليس فيه تضييع لحياتها، فكم من ثيب جميلة تُختار على آلاف الأبكار، وهذا أمر مشاهد؛ لأنها إذا كانت ذات جمال ولو عجوزة، والشاعر قال[1]:

أبى القلب إلا أم عمرو وحبها   عجوزًا ومن يحبب عجوزًا يفند

كثوب اليماني قد تقادم عهده   ورقعته ما شئت في العين واليد

فإذا كانت جميلة لا تضرها زوال البكارة، بل كم من ثيب يتنافس فيها الخُطَّاب وتأتيها الركبان من بلد إلى بلد، وأزواج النبي ـ وهو سيد الخلق ـ واختار له أكثرهن ثيبات، لم يتزوج بكرًا إلا واحدة. والله قدم الثيبات في القرآن فقال: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾ [التحريم/ ٥] والمرأة زوال بكارتها لا يضرها، فكم من ثيب يُرغب فيها أكثر ـ يعني ـ من بكر، وهذا لا يُضيع جمالها، بل يتزوجها رجل آخر ويعطيها كما شاءت، وهذا الرجل لم يضرها بشيء، إنما البكارة التي أزالها فيها الصداق، والله يقول: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء/ ٢١]. فجعل ثمن البكارة الصداق الذي دُفع لها، فهو ثمن تمام، أصلاً أخذت صداقها الكامل تعقد

---

(١) ديوان الحماسة (٢/١٢٨).

ما تشاء كيف تشاء، وذلك ثمن بكارتها والاستمتاع بها الذي يؤخذ؛ ولذا قال الله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء/ ٢٠، ٢١] فثمن بكارتها المال التي استلمته، وقد يكون تفتح منه دكاكين وتكون غنية منه إلى الأبد، ومادامت عنده هي مُؤمّنة حياتها، وإذا طلقها إذا كانت جميلة فجمالها يجلب لها الرجال، وإذا كانت قبيحة فعلى بختها، ودين الإسلام لم يظلمها بشيء، ولم يعمل لها إلا كفالة الحقوق والكمال على ما ينبغي، وكم من ثيب طلقها رجل وأزال بكارتها وتزوجت رجلاً أعظم منه، وكم طلقها الثاني وتزوجت أغنى من ذلك، وهذا أمر معروف مشاهد في الدنيا. والذوق الذي يقول: «إنها إذا زالت بكارتها لا يُرغب فيها» ذوق أفرنجي معكوس مخالف للحقائق، وكم من رجل يختار الثيب على آلاف الأبكار، وهذا مشاهد في الدنيا؛ لأنه كم من ثيب جميلة خير من ألف بكر، والبكر بعد ليلة واحدة ترجع ثيبة، فإن دين الإسلام لم يظلم المرأة بشيء، ولم يغمط لها حقًا من الحقوق، بل أعطاها حقوقها كاملة، وإزالة البكارة أخذت ثمنها صداقًا وافيًا كاملاً تمامًا.

كما قال[1]: «أبغض الحلال» لم يجعله كمان تمام[2]، يعني

---

(١) هنا وقعت مداخلة من السائل أشار فيها إلى كون الطلاق أبغض الحلال فعقب عليه الشيخ رحمه الله بهذا التعقيب.

(٢) عبر الشيخ رحمه الله باللغة الدارجة، والمراد: أنه لم يجعله أيضًا بتلك =

يُبغّض في الطلاق ويأمر الرجل بهذا فقال: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء/ ١٩] يعطف قلب الرجل على المرأة ويُزيّن البقاء معها والصبر معها والمعاشرة معها على أكمل ما يكون، والمصالحة كما قال: ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ ﴾ [النساء/ ١٢٨]. هذه النظرة نظرها دين الإسلام ويحض إليها تمامًا، ولكن إذا انقطعت الأسباب في الرجل ولم يصبر ما نقول: رغم أنفك وأنت ظلمتها!! ما هو صحيح!! أوجب لها السكنى ليرجع له غرض فيها ويأخذها مجال[1]، وجعل له الإقالة مرتين لتمكنه المراجعة، والنبي يقبّح لهم الطلاق فهو لا ينبغي، وفي بعض الأحاديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[2]. والله يأمر على هذا يقول: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء/ ١٩] هذا عطف على الصبر معهن، والصبر عليهن، ومعاشرتهن وعدم الطلاق. هذا يأمر به الإسلام أمرًا حثيثًا، ومن أعظمه آية: ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ

= المثابة من الكمال، أي: لم يستحسنه.

(١) أي: يكون هناك فسحة لتحصل المراجعة.

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في كراهية الطلاق. حديث رقم (٢١٦٣ ـ ٢١٦٤) ٦/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ عون المعبود، وابن ماجة في الطلاق، حديث رقم (٢٠١٨) ١/ ٦٥٠، والحاكم (٢/ ١٩٦)، والبيهقي (٢/ ٣٢٢)، وابن حبان في المجروحين (٢/ ٦٤)، وابن عدي في الكامل (٤/ ٣٢٣)، (٦/ ٤٦١). وانظر الكلام عليه في العلل المتناهية (٢/ ١٤٩)، والتلخيص (٣/ ٢٠٥)، كشف الخفاء (١/ ٢٨)، إرواء الغليل (٢٥٢، ٢٠٤٠)، وإسناده ضعيف.

﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء/ ١٩] هذا تصبير من الله وتقويم على عدم الطلاق، لكن إذا انقضت حيلة الرجل وصبره لم تبق هناك عملية لهذا إلا الفراق؛ لأنه لو لم يجعل الفراق هذا وسيلة كان المجتمع يقع في بلايا لا حد لها أصلاً؛ لأنها قد تكون المرأة كالغل للقلب، وتكون كالضرس الذي تُمرض صاحبها، وتكون بلية على صاحبها، فإذا لم يجد خلاصًا منها تعب وتعبت، والله يقول: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[1] [النساء/ ١٣٠].

هو كما تفضل الأخ كأنه يجعله حلاً للمشاكل كالعملية التي ما يبقى عنها شيء؛ ولذا الله لم يحبّذه، ولم يُرَغِّب فيه، بل أمر بتركه والصبر على عدمه، ولكن إذا كان أمام الأمر الواقع فلا مانع.

الذواقون[2] مذمومون شرعًا، هذا ما فيه كلام.

[السؤال العاشر:] ماهو الدليل القطعي على وجوب إثبات البسملة في غير سورة النمل أو حذفها، وعلى الأول هل يجهر بها أو يسرّ؟

الجواب: إن العلماء اختلفوا في البسملة في غير سورة النمل إلى ثلاثة مذاهب:

---

(١) هنا مداخلة قال فيها الشيخ عطية رحمه الله: «كأن الإسلام يجعل الطلاق إنما هو حلاً للمشاكل، لا أنه غاية لذاته» اهـ. فعقب عليه الشيخ رحمه الله بالكلام الآتي.

(٢) هنا مداخلة من أحد الحاضرين يشير فيها إلى أن الطلاق لا يسوغ إذا كان الإنسان مذواقًا. فعقب الشيخ رحمه الله بالكلام الآتي.

الأول: أنها [آية][1] من الفاتحة ومن كل [سورة][2] ما عدا براءة.

الثاني: أنها ليست بآية في الفاتحة ولا في غيرها.

الثالث: أنها آية في الفاتحة وليست بآية في غيرها. وكل منهم يأتي بحجج وأدلة على قوله.

وأظهر الأقوال: هو ما يستشهد له الأصول وهو الجمع بين هذه الأدلة بأن البسملة في الفاتحة وفي أول كل سورة آية من القرآن في بعض الحروف، كحرف قارىء أهل مكة ـ عبدالله بن كثير ـ وليس بحرف في بعض القراءات، ولا إشكال في كون الحرف أو الكلمة قراءة مروية في بعض القراءات وليست بقراءة في قراءة أخرى، فقوله في سورة الحديد: ﴿فإن الله الغني الحميد﴾. ليس فيه لفظة (هو) في مصحف عثمان بن عفان الذي بقي في المدينة، وفي بعض المصاحف، كالمصاحف التي أرسلت إلى العراق فيها: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾[3] [الحديد/ ٢٤] فلفظة (هو) من القرآن العظيم في قراءة عاصم وليست من القرآن العظيم في قراءة نافع. و﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ في بعض القراءات: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ وفي بعضها ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾[4] [آل عمران/ ١٨٤]. وفي سورة البقرة: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة/ ١١٦] بلا واو، وهو في المصاحف

---

(١) في الأصل: «سورة» وهو سبق لسان.
(٢) في الأصل: «آية» وهو سبق لسان.
(٣) انظر: المبسوط لابن مهران (ص٤٣٠).
(٤) السابق (١٧٢).

ما عدا المصحف الذي أُرسل إلى الشام، وفي مصحف الشام: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ﴾ بالواو[1]. وفي سورة الشمس في بعض المصاحف ﴿فلا يخاف عقباها﴾ [الشمس/ ١٥] بالفاء، وفي بعضها: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾[2].

فإذا كانت الحروف تختلف بهذا الاختلاف بإبدال حرف بحرف، وحذف كلمة في قراءة وإثباتها في قراءة أخرى، فالبسملة آية في بعض هذه القراءات وليست بآية في بعضها، ولا مانع من أن يقرأها جبريل على النبي في بعض الحروف باسم أنها آية، وفي بعض الحروف يقرأ بدونها، وهذا أمر جائز، والمعروف في الأصول أنه إذا أمكن الجمع صير إليه، وهذا تُجمع به الأقاويل، واختاره غير واحد من المحققين.

وأكثر العلماء يقولون: إن النبي ﷺ لم يثبت عنه الجهر بها ـ وإن قال بعضهم ثبت عنه ـ فالأكثر عدم الجهر بها. إذًا القول بالإسرار أكثر قائلاً؛ لأن النبي ﷺ لو كان معهودًا عنه أنه يجهر بها دائمًا لما كان في ذلك خلاف.

[**السؤال الحادي عشر:**] ماهو الأظهر عندكم في الأقوال المختلفة في معنى قوله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»[3]؟

---

(١) السابق (١٣٤).

(٢) السابق (ص٤٧٤).

(٣) حديث الأحرف السبعة متواتر كما نص على ذلك جمع من الأئمة، ومن شاء الوقوف على رواياته وطرقه فليراجع على سبيل المثال: فضائل القرآن لأبي =

الجواب: في هذا السؤال هو أنا نقول عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء/ ٣٦] نقول: الله تعالى أعلم.

[**السؤال الثاني عشر**:] ماهي الحكمة في تقديم (به) في البقرة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة/ ١٧٣] وتأخيرها في غيرها؟

الجواب: الظاهر أن أقرب الحِكَم البلاغية فيه: هو ما يذكره بعض العلماء أنه تفنن في العبارة؛ لأن تكرير العبارة بلفظ واحد أحلى منه عند النفوس تغيير الأسلوب.

[**السؤال الثالث عشر**:] ماهو التوفيق بين الحصرين في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الكهف/ ٥٥] وقوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء/ ٩٤].

الجواب: أنه كما تفضلتم يظهر إشكال بين الحصرين في قوله في سورة الإسراء ـ سورة بني إسرائيل ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء/ ٩٤] فكأن

= عبيد (ص٣٠١ ـ ٣٠٧)، تفسير الطبري (١/ ٢١ ـ ٦٧)، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٢/ ٥٩ ـ ٦٣)، الإبانة عن معاني القرآءات (ص٧٨ ـ ٨٥)، الأحرف السبعة للداني (ص١١ ـ ٢٢)، التمهيد (٧/ ٢٧٢)، مشكل الآثار (٤/ ١٨١ ـ ١٩٥)، شرح السنة للبغوي (٤/ ٥٠١ ـ ٥١٢)، المرشد الوجيز (ص٧٧ ـ ٩٠)، جامع الأصول (٢/ ٤٧٧ ـ ٤٨٤)، فضائل القرآن لابن كثير (ص٢٦ ـ ٣١)، مجمع الزوائد (٧/ ١٥٠ ـ ١٥٤)، كنز العمال (٢/ ٥٩١ ـ ٦١٠)، كتاب مناهل العرفان دراسة وتقويم (١/ ٣٥٤).

استغرابهم ببعث الرسول محصور فيه هذا المنع من الهدى، وقوله في سورة الكهف: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قِبَلًا ﴾ [الكهف/ ٥٥] وفي القراءة الأخرى: ﴿ قُبُلًا ﴾[1].

والجواب عن هذا عند العلماء: هو اختلاف جهة الحصرين، أما الحصر في سورة بني إسرائيل فهو حصر عادي في سببه العادي، والأسباب العادية قد تتخلّف بمشيئة الله ـ جل وعلا ـ؛ لأنه جرت العادة أن البشر إذا جاءهم رسول منهم استغربوا وقالوا: كيف يُرسل إلينا رجل يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق؟ وهذا كثير في القرآن كقولهم عنه: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون/ ٢٤] وقالوا في البشر: ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المؤمنون/ ٣٣] ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ﴾ [التغابن/ ٦] ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر/ ٢٤] ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس/ ١٥] فكون الناس يستغربون بعث البشر هذا استغراب عادي ضل بسببه أكثرهم، مع أن الله بيّن لهم أن رسالة البشر هي معروفة، قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان/ ٢٠] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ [الأنبياء/٧] أي: لا ملائكة، وقال في الرسل: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء/ ٨] فهذا المانع وهو قولهم: ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء/ ٩٤]

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران (ص٢٠٠).

واستغرابهم ببعث بشر مانع عادي، والأمور العادية قد تتخلف؛ ولذا أسلم كثير من الناس ولم يمنعهم كون المبعوث بشرًا.

أما المانع في قوله في سورة الكهف: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ [الكهف/ ٥٥] فهو مانع حقيقي عقلي؛ لأن المعنى على أصح القولين: ومامنعهم أن يؤمنوا إلا أن الله أراد بهم في سابق علمه وأزله أن يبقوا على كفرهم حتى يأتيهم أحد أمرين: أن يأتيهم الهلاك في الدنيا، أو يأتيهم العذاب قبلاً في الآخرة، وهذا الذي سبق في علم الله وإرادته لا يمكن أن يتغير.

فهذا مانع حقيقي لا يتخلف، وذلك مانع عادي قد يتخلف، فانفكت جهة المانعين بكون هذا عاديًا وهذا عقليًا، فزال الخلاف لانفكاك جهة المانعية.

[السؤال الرابع عشر:] ما معنى قوله تعالى في سورة النمل: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النمل/ ٦٦].

الجواب: في هذه الآية أوجه معلومة للعلماء، من أظهرها: أن الكفار في دار الدنيا تختلف علومهم في الآخرة فمن مكذب ومن مصدق ومن شاك، ويوم القيامة يرون الحق عيانًا ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق/ ٢٢]. ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم/ ٣٨] فيتدارك علمهم ويتلاحق ويرون الحق يقينًا بحيث لا يبقى فيه لبس ولا شك، وعند ذلك يقول الواحد منهم: هل من سبيل؟ هل من مرد؟ يا ليتنا نُردّ ولا نكذب بآيات ربنا، والله يقول: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام/ ٢٨].

[**السؤال الخامس عشر**:] هل يمكن عندكم الآن تصحيح مالم يصحح من الأحاديث كما هو مذهب النووي، أم لا يمكن كما هو مذهب ابن الصلاح؟

الجواب: على كل حال الظاهر أنه في هذه الأوقات ليس للمعاصرين علم جديد بالرواة إلا مأخوذًا عمن قبلهم، فلا يمكنهم التزكية ولا الجرح إلا باستناد ما سطره من قبلهم، هذا هو الذي يظهر.

[**السؤال السادس عشر**:] هل ما أسنده الشيخان ترجح فيه قول الأول[1] أم قول الثاني[2]؟.

الجواب: أما ما أسنده الشيخان وكل حديث لم يبلغ حد التواتر فله جهتان: جهة هو منها قطعي، وجهة هو منها ظنّي، والواحد في الشخص له جهتان: أما من حيث وجوب العمل فهو قطعي؛ لأن ما ثبت عندنا بعدول الرواة ولو أخبار آحاد فالعمل به قطعي علينا، وأما أن نحكم بأن ذلك الأمر حق في نفس الأمر فيما بيننا وبين الله فهو من هذه الحيثية ظني، ونضرب لهذا الأمثال: هذا نبينا محمد ﷺ يقول في حديث أم سلمة المتفق عليه: «إنما أنا بشر، وإنكم لتختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له فلا يأخذ من حق أخيه شيئًا فكأنما أقطع له قطعة من نار»[3] قضاء النبي قطعي، إنه حق من قبيل الشرع، وهو في نفس

---

(١) أي: النووي رحمه الله.

(٢) أي: ابن الصلاح رحمه الله.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه. =

الأمر لا يدري أيطابق الأمر، أو لا يطابقه؟ ولذا يحذِّر من أخذه ويقول: «فكأنما أقطع له قطعة من نار» والله يقول: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق/ ٢] فعلينا أن نأخذ بشهادة العدلين قطعًا لنص القرآن العظيم، ولو سئلنا: أأنتم جازمون بأنهما صادقان في نفس الأمر؟ لقلنا: لا؛ لأنهم غير معصومين، فهو من جهة العمل الشرعي قطعي، ومن جهة الواقع في نفس الأمر أمر ظني، ولا بأس أن يُبنى في الشرع قطعي على ظني، بل نجد في كتاب الله أن الظواهر القطعية قد تُبنى على أمور هي باطلة، وهذا جاء في كتاب الله؛ لأنه لما رمى هلال زوجته(١) ورمى عويمر العجلاني زوجته(٢) واجتمع الجميع عند النبي والرجل يقول: هي زانية، وهي تقول: هو قاذف محصنة. لاشك أن أحدهما كاذب بلا شك، والنبي قال في الملاعنة: «الله يعلم أن أحدكما لكاذب» ولو لم يقلها النبي فنحن نجزم بها قطعًا. جاءت آية اللعان فحلف الرجل أيمانه، وخمّس باللعنة وصدقه الشرع، ثم حلفت المرأة

= حديث رقم (٢٤٥٨) ٥/١٠٧، ومسلم في الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، حديث رقم (١٧١٣) ٣/ ١٣٣٧.

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾ حديث رقم (٤٧٤٧) ٨/ ٤٤٩، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم في اللعان، حديث رقم (١٤٩٦) ٢/ ١١٣٤ من حديث أنس رضي الله عنه مختصرًا.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ...﴾، حديث رقم (٤٧٤٥) ٨/ ٤٤٨، وانظر: حديث رقم (٤٧٤٦)، ومسلم في اللعان. حديث رقم (١٤٩٢) ٢/ ١١٢٩، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقد جاء نحوه عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم.

أيمانها وخمست بالغضب فصدقها الشرع، ولم يلزم هذا حد ولم يلزم هذا حد، ولم تقم على واحد منهما حجة بأنه وقع في محذور، والله لمّا بيّن هذا بيّن أن بناء هذه الأمور الشرائع القطعية على ظواهر زائفة غير حقيقية أنه من حكمته في التشريع؛ ولذا أتبع آية اللعان بقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [النور/ ١٠] أي: لولا ذلك لما قبل منكم هذه التشريعات وهذه التسهيلات التي أنتم تعلمون أن بواطنها لا حقيقة لها، فنحن نعلم أنّ أحدهما كاذب، ونعلم أنه لو تعين كذبه لكان عليه جلد القذف، ولو تعين كذبها لكان عليها الرجم؛ لأنها زانية محصنة، وهذا ثابت، وقد سقط عنه الجلد وعنها الرجم، وصُدّقا معًا في ظاهرِ حكم ـ باطنُهُ نحن نعلم أن أحد الشخصين كاذب ـ وبهذا نعلم أن للشرع ظواهر وبواطن، وأنه قد تكون ظواهر الشرع قطعية، والبواطن لا يلزم أن تكون مطابقة لما في نفس الأمر.

[**السؤال السابع عشر**:] هل الخلع طلاق أو فسخ؟ وماهو رأيكم في تعدد الزوجات؟

الجواب: أن أنظار العلماء اختلفت في الخلع هل هو فسخ، أو طلاق؟ فكانت جماعة من العلماء منهم: عبد الله بن عباس، والإمام أحمد، والشافعي يقولون: إن الخلع فسخ لا طلاق، واستدلوا بالقرآن؛ لأن الله قال: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ ثم ذكر الخلع بعد هاتين المرتين فقال: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ [البقرة/ ٢٢٩] ثم جاء بالطلقة الثالثة في قوله: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ ﴾ [البقرة/ ٢٣٠].

وهنالك قوم آخرون قالوا: إن الخلع طلاق، وقالوا: هذه الآية ـ وإن استدل بها ترجمان القرآن ابن عباس ـ لا دليل فيها؛ لأنه لما قال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ ذَكَرَ جواز الخلع لا يقتضي أن الخلع طلقة ثالثة، وقد جاء في حديث مرسل حسن أن الثالثة في قوله: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة/ ٢٢٩] فتكون الثالثة جاءت قبل ذكر الخلع فلا دليل في الخلع.

وأنا أقول: أقرب الوجهين عندي للمعنى قول من قال: إنه طلاق؛ لأن الخلع معاوضة، وأحد المتعاوضين لا يدفع إلا شيئًا يملكه، والرجل لا يملك نوعًا من الفراق للمرأة إلا الطلاق، فالذي يظهر أن عوض المال من جهة المرأة يقابله عوض مملوك للرجل من جهة الرجل، ولا يملك من ذلك شيئًا إلا الطلاق، ويستأنس لهذا بما ثبت في الصحيح في بعض روايات مخالعة ثابت بن قيس وامرأته أن النبي ﷺ قال له: «خذ الحديقة وطلقها تطليقة»[(١)]. فكأن هذا يستأنس له بأنه جعل الطلقة في مقابلة المال. والله تعالى أعلم.

أما تعدد الزوجات فينظر فيه بنظرين: أما هو من أصله دل القرآن على إباحته، وفيه مصالح عظيمة للرجل وللمرأة وللأمة؛ لأن المرأة الواحدة تمرض وتحيض وتُنْفس فتكون عاجزة عن أخصّ لوازم الزوجية بتلك الأعذار والعوائق، والغرض الأكبر من أغراض النكاح: التناسل وكثرة الأمم؛ لتقوم الأمة في وجه عدوها لتكون كلمة الله هي العليا؛ ولأن الله أجرى العادة بأن الرجال أقل عددًا في أقطار [الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق، باب الخلع، حديث رقم (٥٢٧٣) ٩/ ٣٩٥. وأطرافه في: (٥٢٧٤ ـ ٥٢٧٧).

من][1] النساء؛ لأنهم أكثر تعرضًا لأسباب الموت، فلو قُصر واحد على واحدة لبقي عدد ضخم من النساء لا أزواج لهن، فيضطررن لركوب الفاحشة والفاقة، فهو من قبيل الشرع منصوص في كتاب الله، وحِكمُه ظاهرة.

أما هذا العرف الجاري في هذه البلاد من أنه لايمكن أن يجمع رجل بين اثنتين من بنات القبائل من البيوت التي يشار إليها، فهذا يُتكلم فيه من جهتين:

إحداهما: أن بعض الناس يقول: هذا العرف حرام وليس بجائز، وهذه شروط ليست في كتاب الله، وكل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط.

ونحن لا نقول بهذا، بل نقول: إن المرأة إذا خطبها الخاطب تقول له: أما إجابتي إياك فهو حقي، والشرع أعطاني الاختيار إن شئت أجبتك وإن شئت لم أُجبك، وأنا أجيبك بشرط أن لا تتزوج علي. واقتصاره على واحدة جائز شرعًا، فهي ما اشترطت عليه إلا أمرًا يجوز له، فإن رضي بهذا الشرط فهذا الشرط في كتاب الله، لأن الله يوجب على المسلمين الوفاء لإخوانهم المسلمين بالشروط، والله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة/ ١] والألف واللام للاستغراق، ويقول: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء/ ٣٤] ويقول النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث» إلى أن قال: «وإذا

(١) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

وعد أخلف»[1]. فكل وعد أخذه مسلم على أخيه لم يحرم حلالاً ولم يحل حرامًا فهو في كتاب الله للأمر بالوفاء بالعهود في النصوص العامة في كتاب الله وسنة نبيه، لكنّا نقول: إن هذا الأمر وإن كان قد يتمشى مع الشرع فيجب على عامة الناس المعاونة على محاربته وإزالته بالطريق الاجتماعية، وأن يزيلوا هذه الأغلاط وهذه الأعراف الفاسدة؛ لأن هذا يقلل عددهم، وترك هذه السنة يقلل العدد ويترك عددًا ضخمًا من نسائهم ليس في كفالة أحد، فهو وإن أجازه الشرع فالشرع فيه حَسَنٌ وفيه أحسن، فهذا وإن كان حسنًا جائزًا فتركه أحسن منه، وعلى المسلمين أن يحاربوا هذه الفكرة محاربةً اجتماعية لكون غيرها أحسن منها، وأن يتخلصوا من هذا العرف الفاسد؛ لأن الرجل إذا كان قادرًا على اثنتين أو ثلاث كان ذلك فيه نفع من جهات متعددة ككثرة كفالة النساء، وصار عدد ضخم، وقلّ الطلاق الذي يضطر إليه الرجل إذا زال غرضه من هذه ليستبدل بها هذه؛ لأنه لو فُسح في هذا قل الطلاق، وكثر التناسل، وكثرت كفالة النساء، وقل الأيامى في الدنيا، فهي مصالح كثيرة جدًا، فعلى المسلمين أن يلتفتوا إليها من حيث إنها أفضل وأحسن لا من حيث إنها أمر حرام، هذا الذي يظهر لنا والله تعالى أعلم.

[السؤال الثامن عشر:] ما تقولون في التزام شخص مذهبًا معينًا من

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب علامة المنافق. حديث رقم (٣٣) ١/ ٩٨، وأطرافه (٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥). ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال المنافق. حديث رقم (٥٩) ١/ ٧٨.

غير نظر إلى دليل ولا إلى قول قائل؟ وهل يستوي في هذا العوام وغيرهم، أم لا؟

الجواب: أن التزام مذهب معين لم يرد به نص من كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ ولا إجماع، ومتأخروا الأصوليين من جميع المذاهب كلهم مطبقون على وجوبه، ومستندهم في ذلك تحقيق المناط. وإيضاح ذلك أنهم يعلمون أن الله يقول: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل/ ٤٣] ويرون أنه لم يبق مجتهد مستحق بأن يُستفتى فيفتي، وإذًا عندهم إذا كان لم يكن في الموجودين من هو أهل للفتوى يجب تقليد بعض الذين ماتوا وهم أهل للفتوى. ثم إنهم اختاروا مذاهب الأربعة وحصروا التقليد فيها دون غيرهم من فقهاء الأمصار، قالوا: لأنه لم يدون مذهب كتدوين المذاهب الأربعة فإن كلام الأئمة فيها دُوِّن ونوقش وسئلوا عن كل شيء حتى صار المتمذهب به على ثقة من أن هذه فتاوي ذلك الإمام الذي هو أهل للفتوى. قالوا: وغير المذاهب الأربعة من مذاهب الصحابة ومذاهب فقهاء الأمصار التي انقطعت أو لم تنتشر لم تكن بمثابة المذاهب الأربعة لما ذكرنا من إيضاحها وتحقيقها وتنقيحها؛ فلأجل هذا النوع من تحقيق المناط أوجبوا تقليد أحد هذه الأئمة الأربعة.

والذي يظهر ـ والله تعالى أعلم ـ أنه ليس لأحد الحكم بالحصر على أنه لا يوجد من يكون أهلاً لأن يأخذ من كتاب الله وسنة نبيه.

وبالجملة فإن الاستقراء يدل على أن أصول الضلال كلها راجعة إلى أصلين: أحدهما: الإفراط، والثاني: التفريط، وأن الحق دائمًا

واسطة بينهما، فيه التجافي عن طرف الإفراط وطرف التفريط، والعلماء ضربوا لهذا أمثلة: فمن أمثلة هذا قضية عيسى، فإن النصارى هلكوا فيه بالإفراط، واليهود هلكوا فيه بالتفريط. ومن أمثلة هذا: أعمال العبد، فإن الجبرية هلكوا فيها بالإفراط، والقدرية هلكوا فيها بالتفريط، كذلك مذاهب العلماء أفرط فيها قوم وفرط فيها آخرون، فرط فيها قوم كابن حزم وأتباعه حيث حملوا على الأئمة رضي الله عنهم وأرضاهم وعابوهم، واعتقدوا أنهم مشرعون من تلقاء أنفسهم يقولون على الله مالم يرد به دليل من كتاب ولا سنة، فهذا تفريط في الأئمة، وقوم أفرطوا في الأئمة فجعلوا يقدمون كلامهم على كلام الله ورسوله، وهذا إفراط لا يجوز، والمذهب الحق وسط بين الأمرين، أنه إن وُجد نص من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فهو مقدم على قول كل أحد، والأئمة الأربعة صح عن كل واحد منهم ما معناه أنه إن وُجد قوله يخالف كتابًا وسنة ضُرب بقوله الحائط، وإن لم يوجد في المسألة نص أو وُجدت فيها نصوص ظاهرها التضارب تحتاج إلى ترجيح فطبعًا تقليد المجتهد الذي فيه أهلية الاجتهاد كمالك ونظرائه أقرب إلى الصواب.

[السؤال التاسع عشر:][1] قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ [المائدة/ ٥] إلى آخر الآية الكريمة، فأباح تزوج الكتابية بنص القرآن العزيز، فكيف ساغ لخليل أن يقول: «إلا الكتابية بِكُرهٍ». مع علمي أن المكروه من قبيل الجائز؟

(١) السؤال التاسع عشر، والعشرون من الشريط الرابع.

الجواب: أن كراهة من كره من العلماء تزويج الكتابية مستند لآية في كتاب الله من سورة البقرة، وهو مذهب معروف عن عبدالله بن عمر؛ لأن الله قال في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة/ ٢٢١] وقال في موضع آخر ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة/ ١٠] والمشركات يشمل جميع الكافرات، غلط هنا قوم وقالوا: إن الكتابيين ليسوا من المشركين!! وغرهم في ذلك ظواهر آيات من كتاب الله جاء فيها عطف الكتابي على المشرك، وظنوا أن ذلك العطف يقتضي المغايرة، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة/ ١] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة/ ٦] وقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة/ ١٠٥] وقوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [آل عمران/ ١٨٦] فعطْف المشركين على أهل الكتاب توهم بعض منهم أن الكتابيات لسن من المشركين.

والحق أن الكتابيين من المشركين، وقد نص الله على أنهم من المشركين في سورة براءة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة/ ٣٠، ٣١].

فصرح بأنهم مشركون، فعبدالله بن عمر قال: قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ﴾ [البقرة/ ٢٢١] لم ينسخه شيء، ولم يقدم عليه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة/ ٥] واستدل بما يقوله بعض العلماء بأن النص المُحَرِّم يقدم على النص المُجيز؛ لأن ترك مباح أهون على الله من ارتكاب حرام.

ولكن جماهير العلماء علموا أن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، وأن آية: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ نازلة قطعًا بعد قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، وأن الله ـ جل وعلا ـ بين فيها هذا الأمر، والأخذ بظاهر آية البقرة هو مستند التحريم أو مستند الكراهة، وعن بعضهم التحريم، وأما مستند الجميع فهو في آية المائدة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة/ ٥].

[السؤال العشرون:] قال مالك في الموطأ: (باب جواز جمع الأختين)[. . .][1].

الجواب: أن الجمع بين الأختين في ملك اليمين حرام عند الأئمة الأربعة وجل فقهاء الأمصار، وأجازه داود بن علي الظاهري وأتباعه، حجة الجمهور آية من كتاب الله في سورة النساء، وهي قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء/ ٢٣] لأن المصدر المنسبك من قوله (أن) وصلتها في قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ عَطْف على المضاف المحذوف في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء/ ٢٣] أي: حرم عليكم نكاح أمهاتكم، وحرم عليكم الجمع بين الأختين. والألف واللام في قوله: ﴿ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ هو (أل)

---

(١) باقي السؤال ذهب لانقطاع التسجيل. والذي في الموطأ (ص٣٦٦): «ما جاء في كراهية إصابة الأختين بملك اليمين والمرأة وابنتها».

الاستغراقية، ودخلت على اسم الجنس المثنى، وهي تعم عند علماء الأصول، فعمَّت بظاهرها كل أختين سواء كانتا بعقد أو بملك يمين، هذه حجة الجمهور، وهي واضحة.

واحتج داود بن علي الظاهري وأتباعه على جواز الأختين في ملك اليمين بآيتين من كتاب الله إحداهما مكررة والأخرى غير مكررة، أما الآية المكررة فهي في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ وسورة ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون/ ٥، ٦] وقد تقرر في فن الأصول أن (ما) الموصولة من صيغ العموم، قال داود: الله ـ جل وعلا ـ نفى الملامة عمن لم يحفظ فرجه عن ملك يمينه وأطلق، وجعل العداء فيما وراء ذلك وأطلق ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ وعضد داود مذهبه بأن قال: إن آية: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء/ ٢٣] في سياق العقود والأنكحة، وآية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ في سياق التسري، فلنترك تلك في محلها، ونترك هذه في محلها.

وأجاب الجمهور بأن قالوا: إن بين الآيتين عمومًا وخصوصًا من وجه، والمقرر في الأصول: أن الآيتين إن كان بينهما عموم وخصوص من وجه يظهر تعارضهما في الصورة التي يجتمعان فيها ويجب الترجيح، كما عقده العلامة الشنقيطي العلوي سيدي عبدالله في «مراقي السعود» بقوله[1]:

---

(١) المراقي (ص٥٧).

وإن يك العموم من وجه ظهر فالحكم بالترجيح حتمًا معتبر

والعلماء لما نظروا بين الآيتين وجدوا عموم ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء/ ٢٣] أرجح من طرق متعددة توجب تقديمه على عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أحد هذه الطرق أن عموم ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء/ ٢٣] نص في محل المدرك المقصود بالذات لإبانة هذا الحكم؛ لأن السورة ـ سورة النساء ـ والمحل هو الذي تعرض فيه القرآن لما يحل من النساء وما يحرم، فصرح فيه بمنع الأختين، أمّا آية ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾، وآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فلم تُسق واحدة منهما لتحريم امرأة ولا لتحليل أخرى، وإنما سيقتا لمدح المتقين فكان حفظ الفرج من جميع خصال المتقين، فاستطرد أنه لم يلزم عن الزوجة والسُّرية، والنص المسوق بالذات لإبانة الحكم أولى بالعمل من الذي لم يُسق لذلك.

الوجه الثاني: من هذه المرجحات: أن آية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون/ ٦] أجمع جميع العلماء أنها ليست باقية على عمومها بالإجماع؛ لأن الأخت من الرضاع لا تحل بملك اليمين إجماعًا؛ لإجماع جميع المسلمين على أن آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ يخصص عمومها بعموم قوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء/ ٢٣] وموطوءة الأب لا تحل بالإجماع لإجماع المسلمين أن آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ يخصص عمومها بعموم قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء/ ٢٢] والمقرر في الأصول ـ على أصح الوجهين ـ أنه إن تعارض عامّان أحدهما مُخَصَّص

تخصيصًا بعد تخصيص، والثاني لم يرد فيه تخصيص إلا محل النزاع، فالذي لم يرد فيه تخصيص أولى بالتقديم والقوة من الذي دخله تخصيص.

الثالث: من هذه الأوجه أولاً أن المقرر في علم الأصول أنه إذا [. . .][1].

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، ويمكن استدراك ذلك بمراجعة كلام الشيخ رحمه الله على هذه المسألة في كتابيه «أضواء البيان» (٥/ ٧٦٢) و«دفع إيهام الاضطراب» (ص٧٢) حيث رجّح عموم ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ من خمسة أوجه.

المحتويات

(المحاضرة الثانية)

(المحاضرة الثالثة)